

غسان الجباعي

أصابع الموز

قصص قصيرة

أصابع الموز «قصص قصيرة»

تأليف: غسان الجباعي

الناشر : دار كنعان

للدراسات والنشر والخدمات الإعلامية

دمشق – ص.ب 443 هاتف: 2134433 (11 - 963 +)

فاكس: 3314455 – 2134433 (11 - 963 +)

E-mail: said.b@scs-net.org

الطبعة الأولى: وزارة الثقافة / 1994

الطبعة الثانية: / 2008 / عدد النسخ 1000

إخراج: لبنى حمد

يمكن الاطلاع على كتب الدار ومنشوراتها

على صفحة الشبكة التالية:

http://www.furat.com
http://www.neelwafurat.com

غسان الجباعي

أصابع الموز

قصص قصيرة

الإهداء

إلى

أصدقائي الموتى

الجالسين

في القبور

مُقَدِّمَة

حين قرأت قصص «أصابع الموز» منذ سنوات، اختطفتني تلك «الصور» إلى عالم من الحزن، وأسرتني تلك «الحكايا» في سجونها. وفي هذه «السجون» أورقت تلك «البنى المعمارية» لهذه القصص وتمددت في نفسي شرفات من الحب.

يومها.. سمعت، نقرات من «أصابع» تشيخوف على نوافذ الذاكرة، نقرات راعفة بالألم، وكأنها ما تزال كما كانت في يوم من أيام بدايات هذا القرن.. وكل القرون.

عمّدتني هذه القصص بـ«شهوة» أن أضمّن شيئاً منها، في مشروعي السينمائي القادم.. أن أضمن ربما «صور».. «كلمات».. وربما ما تسرّب من ظلال إلى وجداني..

ظلت «أصابع الموز» مختزنة، وبقيت القصص التي تتضمنها هذه المجموعة بضوئها وعتمتها توقد في نفسي وجداً، تنفذ لحظاتها مذاقاً كاوياً، وتنثر ظلالها في حلقي طعماً من الحرقة والشجن، وتولد أسئلة تلوب بين الحياة والأدب.. إلى أن جاءت اللحظة التي مكّنتني من أن أحقق فيلماً من هذه «الأصابع» بعنوان: «فوق الرمل.. تحت الشمس».

يقول غسان جباعي أمام كاميرا هذا الفيلم:

«أنا بالأساس لست كاتباً.

أنا مخرج مسرحي.

لكن عتمة جوا (ويقصد الزنزانة) خلتني صير كاتب..».

ترى هل قال غسان للكاميرا كل الحقيقة؟ أم هي المسافة الأبهى نحوها؟؟

أعتقد أن «أصابع الموز» هي قصص تنتمي لهذا «الرهان»، وربما هذه الطبعة الثانية لها، تؤكد هذا الاقتراب الحقيقي من حرائق ذاك «الرهان».

ترى ما الذي يمكن أن يسعى إليه الفن عموماً والأدب بكل أشكاله.. غير هذا الذي توقده في النفس قصص «أصابع الموز»..

لقد رسمت لي بعبق أصابع غسان، الذي لم أكن قد التقيته من قبل، صديقاً من أصدقاء العمر، عمرنا هذا الذي عشناه نحن «فوق الرمل.. تحت الشمس» في ساحات ذابت فيها الفروقات بين داخل «السجن» وخارجه.

محمد ملص

البدوق(*)

مات جدي الطيب فضل الله.. رحمه الله

كان فضل الدفء وآخر الحنان..

حملت كيسي على كتفي، واتجهت نحو المدينة، المدينة البعيدة.. قالوا: لن تجدها وإن استطعت فلن تعرفها وإن استطعت فهيهات أن تتعرف هي عليك في زحمة الوجوه وقلة الانتباه.. قلت: وهل يصبح الدم ماء؟ قالوا: يصبح.. ويسيل في الشوارع أيضاً.. يتجمع في الساحات بركاً قانية اللون.. وقد يتجمد أحياناً، ويبنون عليه البنايات والمحلات.. قلت: الدم؟ قالوا: الدم.. الدم..

تبالغون.. تبالغون.. قلب الأم دليلها.. إنها في انتظاري.. إنها تنتظر.

كان الكيس محشواً بكثير من الأشياء الجميلة الشقية، وقليل من الأسمال والخرق الملونة الباهتة.. كل ما أملكه في هذه الدنيا أحمله الآن على ظهري.. الخرج الجلدي المليء بالمسامير والمفاتيح وحذوات الخيل والحدائد والكلل(**).. واللوح الخشبي الأسود المكسور الذي علّمني كيف أتقن عمليات الجمع والطرح، وكيف أرسم

(*) البدوق: هو البندوق.

(**) الكلل: الكرات الزجاجية الصغيرة التي يلعب بها الأطفال.

الأحرف الأبجدية: حرف الجيم حذوة فرس.. حرف الياء بطة عائمة.. والألف عصا..

الطريق الترابي متعرج، يتسع في الأماكن المنبسطة السهلة، ويضيق في الأراضي الوعرة.. وكنت أتسلى بعدّ خطواتي: «واحد اثنان ثلاثة عشرة..» وكنت ملزماً كلما قطعت عشرين خطوة أن أنظر إلى الخلف وأراقب الدرب.. هل فقدت شيئاً من ملكيتي؟ هل سقط من كيسي شيء ما.. وكانت القرية تكبر كلما ابتعدت.. تتسع.. تتسع.. فأراها كلها.. كل حواريها..

وتعبت.. لماذا لا أجلس قليلاً فوق هذه الصخرة العارية العالية..؟ وضعت الكيس عند قدمي الصخرة.. تسلقت.. صعدت.. وجلست طويلاً أراقب المكان.. كانت السهول غبراء قفراء موحشة متوحشة تميل إلى لون الخرائب، لولا بعض المستطيلات القليلة المحروثة حديثاً.. وكانت السماء في فصل الخريف - صافية زرقاء تخلو من الغيم ولا تخلو من الطير.. كنت وحدي أركب على ظهر الصخرة العالية اليتيمة، والصمت مطبق.. أغمضت عيني قليلاً.. تغيرت الألوان.. أصبحت أكثر قتامة وقرباً.. فتحت عيني.. لا شيء جديد.. ثمة خط أبيض منحنٍ راح يشق الزرقة الصافية.. أنامل عملاقة تمسك «طبشورة» وتخط على سبورة السماء شكلاً منحنياً لم يكتمل بعد.. كانت الطبشورة صغيرة.. وكنت أراها.. تتلألأ وتنطلق بسرعة كبيرة باتجاه الشرق.. كانت الطبشورة مثل الرصاصة.. مالت كثيراً وفجأة اختفت خلف الجبال.. وكان الخط رفيعاً.. أصبح بعد قليل عريضاً متعرجاً.. ثم تحوّل إلى وشاح شفاف أبيض تتلاعب فيه الريح.. ثم تتبدد إلى نتف.. شعرت بالجوع.. انحدرت إلى مكان الكيس.. أخرجت الصرة - زوادتي، وصعدت.. سأتناول طعامي ثم أتابع السير نحو المدينة.. هل

أجدها؟ هل ستعرفني؟ ستضمني إلى صدرها كما كانت تفعل..؟ هل ستغني لي أغنية الديك..؟

أخرجت رغيفاً من الخبز، بيضة مسلوقة، ملحاً، بصلة يابسة، زبيباً.. تذكرت جدي فضل الله، دسست يدي تحت القميص.. تلمست سرتي.. هذه الكتلة اللحمية الطرية في منتصف البطن تشبه حبة الزبيب الشقراء.. إن ذلك يبرهن بشكل قاطع على صحة اعتقادي.. أنا لم أولد من بيضة إذن.. ولا من شق الصخرة كما يعتقدون.. وإنما مثل جميع الخلق أتيت من بين فخذي امرأة كما قال جدي..

نعم تمت ولادتي في العراء، في البرية الجرداء، مثل ولادة جرو الذئب.. وعلى ذمة الوالدة، ليس في العراء تماماً، وإنما تحت الصخرة، داخل السرداب البازلتي، فوق سرير التراب الأحمر.. ولكن أين بالتحديد.. من المستحيل أن أتذكر ذلك.. والدتي لم تقل.. كما أنه من المستحيل أن أولد مرة أخرى.. المرأة الوحيدة التي حضرت مخاض الوالدة وسندت ظهرها، كانت الصخرة.. الصخرة الكبيرة التي سمّاها الناس.. ظلماً - «بيت الحنش».. الخرقة الوحيدة التي لفت جسدي اللزج كانت ثوب الوالدة.. الستارة الوحيدة التي غطت عطاءها البكر الأعجر، كانت ستارة الليل والمطر.. آه يا أمي.. يا حبيبتي.. للسرداب نافذتان عاريتان.. جاء المطر وأسدل ستائره المخرمة، فاستغلت الحبلى الوقت.. خلعت ثيابها خلف سور الليل وجلست تفرغ بطنها العارم من محتواه.. مني.. آه يا أمي الحبيبة.. نافذتان للسرداب.. عاريتان.. وللمرأة نافذة واحدة.. أطلقت الأم على وليدها اسماً حبيباً «يحيى» ولكن القرية لم تعترف بهذا الاسم.. نادوني «حنش الصخرة» «البدوق» «ابن العاهرة»..

كم أشعر بالغبن.. كم أشعر.. عندما كنت برعماً مطبق العينين كنت أتلفت بشكل غريزي إلى مصدر الصوت الوحيد أمي.. إلى رائحتها.. ما زلت أذكرها كالحلم.. كغصن العنب اليابس في موقد النار.. كنت أقطن الوعر - الغار البازلتي.. سرير التراب الأحمر الناعم.. سور الحجارة والحصى، حولي.. تخيّم فوقي أعواد الشجر - السنديان والزعرور وشوك العرقوب والأعشاب اليابسة. كيف حصلت الأم على هذه الأغصان؟ من أين؟.. عصفوراً كنت، وكان لي عش وأجنحة تحوم حولي، ونافذة تطل منها الأم.. وكنت كلما شعرت بجسدها يسدّ فوهة الغار ويحجب الضوء عني.. أركع فاتحاً ذراعي وفمي.. واللعاب يسيل من شفتي على ذقني يتمدد ويقطر فوق التراب.. كنت أركع على ركبتي العاريتين.. وكانت هي أيضاً تركع أمامي.. تضمني إلى صدرها بلهفة مصدرة تلك الأصوات الحيوانية الحبيبة.. تطقطق كباسات صدرها على عجل.. تشق الثوب أحياناً وتخرج ثديها المكوّر الأبيض الناعم المليء بالحليب.. الحليب الدافئ الحلو الدبق.. تمسك رأس الثدي بين أصابعها وتدفع الحلمة الوردية في فمي المفتوح بينما تحتضن رأسي من الخلف بيدها الأخرى.. وكانت تغني حيناً فيصبح مذاق الحليب منعشاً.. وكانت تبكي حيناً آخر، وكنت أذوق دموعها مع الحليب.. وعندما يحل الظلام، كنت أنام في حضنها فتنقلني خلسة إلى سريري الترابي، تغطيني بمزيد من الأسمال الرمادية ثم تسد المغارة بالحجارة وهي تتمتم بكلمات غير مفهومة.. وتذهب.. كيف كان يستطيع هذا الجسد النحيل زحزحة الصخور السوداء الثقيلة يا أمي؟ هل كان يساعدك أحد؟ رجل ما.. غول ما.. خاتم سحري من زجاج؟ هل كنت تستعينين بالملائكة الصغار..؟ بالشياطين.. بالأحاجي المختبئة في شقوق العتمة..؟ كيف كان الجسد النحيل

يسد المغارة بالحجارة يا أمي..؟ كان يساعدها الله.. هكذا صرّح جدي أخيراً.. إنه كلي الفعل والتفاعل، قادر على كل شيء، قادر على أي شيء.. هل كانت أمي زوجة الله إذن..؟ لماذا يطلقون لقب «بدوق» علي..؟ كان هذا الاسم يروق لي.. كنت أطرب له، وأكرر مقاطعه مترنماً، بد.. دو.. ق.. ولكن جدي المرحوم فضل الله نهرني ذات يوم عندما سمعني أردد هذه الكلمة بصوت مرتفع وعندما سألته: ابن من أنا إذاً؟ قال بصوت منخفض: أنت ابن الله.. ابن الله تعالى.. هل كانت أمي حقاً زوجة من زوجات الله؟ لماذا لم أره إذن؟ لماذا كان يساعدها سراً؟؟ الراعي يؤكد بعبارة واحدة: كل شيء ممكن.. وأنا أثق بالرعاة.. إنهم لا يخطئون.. يعرفون كل شيء.. كل أنواع الصخور والنباتات والتراب والحيوانات وأحوال الطقس والريح والنجوم.. يعرفون أسماءها وأماكنها ومن أول نظرة يعرفون ابن من أنت.. وكم عنزة لديك.. يقول الراعي: لن تمطر غداً فلا تمطر.. ويقول: ستهب العاصفة.. فلا تمضي ساعات قليلة حتى تهب.. وإذا ما أقبل عليك شخص ما فإنه يؤكد أن الرجل صياد مثلاً، أو فلاح.. أو من المدينة.. ضل طريقه.. تاجر مثلاً.. أو عابر سبيل.. وكان إذا ما رأى الشر في عيني القادم الغريب، فإنه يهيئ مقلاعه سلفاً.. كيف كان يعرف ذلك؟؟ كيف كان يرى الشر في عيون الآخرين.. كيف كان يرى عيونهم أصلاً وهم بعيدون.. جدي فلاح.. والفلاح يكره النمل بطبعه لأن النمل يسرق البيدر. هكذا يقول الراعي. والبيادر تحب النمل لأن النمل مجتهد ويحب القمح. هكذا يقول الراعي.. هذه النمال مثل قطيع الماعز فوق تلة رملية.. ذات يوم أعطتني أمي خرزة زرقاء وعندما رآها سألني: هل أنت متأكد من أنها أمك. قد تكون امرأة عابرة.. فالعابرات يعطفن على جميع الأطفال.. صمتّ.. خبأت الخرزة في جيبي وابتعدت.. كان

الناس يرددون بأن أمي قحبة.. تركتني وهربت مع جندي. لم أكن أدرك ماذا يقصدون.. ولكنني كنت أفهم من عيونهم بأن ذلك سيء.. سيء جداً وعندما سمعت لأول مرة أن جميع رجال القرية قد ركبوها.. ضحكت.. وعندما كنت أرى رجلاً يركب دابة - كنت أضحك في سري.. وأتساءل.. كيف ذلك.. هل كانت أمي حمارة يركبها الرجال كلما أرادوا الذهاب إلى البيادر أو إلى الكروم أو القرى المجاورة.. كنت اضحك ثم أشعر برغبة شديدة في البكاء كلما تذكرت يديها الجميلتين، ووجهها الضاحك الأبيض، وذقنها الناعم المكوّر.. كنت أشعر بالاختناق قبل البكاء ولذلك اعتقدت بأن الدموع تتجمّع في البطن أولاً، ثم تخرج من العينين على دفعات.. وكنت أراقب النساء خلسة.. كم هن شبيهات بأمي! ومرة عندما كنت أجلس كالعادة في حضن جدي، مددت يدي إلى لحيته البيضاء وسألته. من أنت؟ فارتجف شارباه ونعر - بملقطه الفولاذي - جمرة متوهجة في الموقد ثم قال: أنا.. جدك.. جدك فضل الله.. وصمت. قلت: يا جدي فضل الله، كيف يركب الرجل على المرأة..؟ قهقه جدي فاكتشفت بأنه لا يملك أسناناً مثل أسناني.. لماذا تسأل هذا السؤال؟ قلت: لأنهم يقولون بأن كل رجال القرية قد ركبوا على أمي.. امتعض جدي.. قذفني بعيداً عنه، ثم ضربني بالملقط على مؤخرتي صارخاً.. يا بن الفاعلة.. يا بن التاركة.. بكيت يومها.. مرضت.. بقيت أسبوعاً كاملاً طريح الفراش والوساوس. وما زال وشم الملقط الفولاذي مطبوعاً حتى الآن على إليتي. وفي ذاكرتي.. رحم الله جدي..

الحياة في المدينة مدهشة، رائعة، مليئة بالشمس وعباد الشمس، بالأزهار والأقمار والشوك، بالنحل والأمل والحب والأزهار والموسيقى.. فسيحة مسيجة بالأشجار والطيور والأضواء..

انتهيت.. وضعت ما تبقى من رغيف الخبز في صرتي، عقدت عليه.. نهضت.. هبطت.. وعندما اقتربت من الكيس ارتعبت.. هربت إلى الأعلى.. ورحت أراقب المنظر المخيف متحفزاً. كانت جديلة سوداء طويلة غليظة تتلوى بالقرب من الكيس.. انفصلا.. أصدرا صوتاً يشبه صفير الريح.. تراقصا.. التحما من جديد.. أجراس مكتومة الأصوات فحيح صريح.. جديلة تنتهي براسين متقابلين كفكي كماشة مفتوحة.. جديلة سوداء تلتمع.. تقوست.. تمرغت أمام الكيس.. ضربت بذيلها.. تدحرجت نحوي.. نحوي.. نحو.. ي.. قفزت إلى الخلف.. قفزت عن الصخرة وركضت ركضت.. كان صوت الفحيح يضج في أذني والكماشة تحاول أن تعض عقبي.

عندما وصلت إلى أول بيت من بيوت قريتي توقفت.. كان قلبي يدق بعنف والدماء تكاد تطفر من شراييني. نظرت إلى الخلف. كم أنا سريع.. تابعت النظر وصلت عيناي إلى الصخرة الشاهقة.. كم أنا بعيد الآن.. لم أعرفها.. كانت النتوء الوحيد في هذا العراء.. ولكنني لم أعرفها.. كانت تنتصب هناك جمجمةُ لعجوز يلتف بعباءة سوداء وكانت الطيور الجارحة تحوم.. تحط على جبينه. تشرب الماء من محجري عينيه وتقفز من جديد نحو السماء.. نبح كلب كسول كان يتفيأ تحت الخابية فذعرت من جديد وركضت ولكن صوت صاحبة البيت أم العز أوقفني.. لا تخف.. وانتهرت الكلب فبصبص بذيله، وصمت.. ثم اتسعت عيناها وفتحت ذراعيها: «يحيى» ولست أدري هل كان السبب أنها عرفتني أم أن لون وجهي وشكلي بعث فيها الخوف والدهشة.. سألتني: ماذا أصابك؟ ولكني تلعثمت وبالكاد استطعت أن أنطق بضع كلمات: الحنش.. اثنان سوداوان.. وتجمع أولادها.. كلهم في مثل سني

وأكبرهم كان معي في نفس الصف.. ثلاثة شبه عراة حملوا العصي عندما سمعوا كلمة حنش.. وجلبت المرأة طاسة ماء فسقتني.. هيا بنا.. قال الأولاد متحمسين غير عابئين بخوف أمهم وصراخها.. ولكني لولا كيسي الذي بقي هناك لما تجرأت على العودة معهم إلى الصخرة.. ومشيت بين الأولاد أتقدمهم حيناً ويسبقوني أكثر الأحيان.. كنت أقفز فوق الحجارة وأراقب الطريق بانتباه شديد.. كنت خائفاً.. ولكن الأولاد شجعوني..

صعدت على الصخرة من الخلف.. كنت أعرف المكان جيداً. كان الأولاد يضربون الحجارة بعصيهم وكنت أنا أيضاً أجهز عصاي للضرب.. وصلنا إلى القمة.. ونظرنا نحو المكان لم نر شيئاً ولم نسمع شيئاً فانحدرنا وعندما رأيت الجديلة من بعيد توقفت.. وتوقفنا.. تقدم أشجعنا فلحقنا به.. وعندما اقتربت كثيراً رأيناهما:

كان الجزء الأخير من أحد الثعابين يتلوى في شدق الآخر.. ليس أكثر من ذراع واحدة فقط.. بينما جحظت عينا الثعبان الذي كاد جسمه أن يختلط بالتراب.. في البدء ظننا أنه ثعبان واحد قد أخرج لسانه الأسود الطويل.. ولكننا عندما أدركنا أن أحد الثعابين قد ابتلع أخاه.. وأن يداً قوية مجهولة قد انهالت على الاثنين حتى سحقتهما معاً.. عندها شعرنا بالخوف.. من الذي فعل ذلك؟ عابر سبيل؟ ربما.. ولكن.. كيف فعل ذلك؟ بالعصا..؟ كل شيء جائز ولكن.. ولكن.. أين الكيس؟؟ الكيس القنبي؟ أين وضعته؟ هنا؟ وضعته هنا وصعدت إلى هناك.. بحثنا. درنا حول الصخرة.. فتشنا المنطقة.. لم نترك حجراً إلا وقلبناه.. لم نجد أثراً للكيس.. صعدنا مرة أخرى إلى قمة الصخرة.. لم نعثر حتى على كسرات الخبز وقشور البيضة المسلوقة والبصلة التي أكلتها للتو.. لم نجد أثراً لشيء. لكن أحدهم صرخ من بعيد: انظروا ماذا وجدت حذوة

فرس.. إنها لي.. حذوة حذوة.. إنها لي نعم أعرفها كانت في الكيس.. صرخ آخر كان بالقرب من الدرب التي تقود إلى المدينة: هيه.. هذا قميص.. قميص أحمر.. قميص مرقع.. إنه لي أيضاً.. أنا وجدته.. أترك أنت هجمنا تجمعنا.. وبدأ العراك.. اختلطت العصي.. تطايرت الحجارة ثلاثة ضد واحد.. لوح.. لوح خشبي.. لوح.. مسامير..

كانت أشيائي متناثرة على الدرب الترابية.. وكانت الدرب تتجه رغماً عنها - نحو المدينة.. وكانت المدينة بعيدة.. بعيدة جداً..

وهناك كانت أمي تنتظر..

تدمر

1986

المشاغل

كان الحصان المعدني ينهب المسافات بعجلاته الأربعة المحجلة، وعندما تعثّر بوعر الطريق كبا فتحوّل إلى كتلة معدنية أنيقة فوق القارعة. وكانت الريح أيضاً تنهب الفضاء بأرديتها الضبابية الباردة.. تنفخ محدثة باحتكاكها ذلك الصفير المتواصل الحاد، ضاربة الزجاج السميك للواجهة العريضة - بكل أنواع الفراشات المطرية العمياء، والحشرات الشتوية الشفافة.. بينما كان الأستاذ فايز الأصيل يجلس خلف المقود على المقعد المخملي الوثير لسيارة المارسيدس الجديدة مستشعراً الدفء والراحة النفسية.. برد وليل ورياح موحشة بدأت تعربد خلف النوافذ، وهو يجلس وراء المقود واثقاً.. مطمئناً.. السيارة.. هذه العلبة المعدنية الساحرة.. هذه الأبهة التي تمشي على اربعة.. الفخامة المطلية باللون الأسود اللماع الوقور، المزخرفة بالنوافذ والخرز الأزرق والأحاجي.. الفخامة التي تسبقك أينما توجهت معلنة عن قدومك بأسلوبها الأخاذ.. أو تقف لك في الطريق ناظرة إليك بعيون يلتمع فيها الاحترام والحسد.. العباءة السوداء المعرقة بذهب العز والمسؤولية.. «إذا سلّموك سيارة بيضاء يا أستاذ فايز فعليك أن تغسلها كل يوم بالماء والصابون كي تبقى نظيفة.»، «وإذا كانت سوداء؟» فما عليك إلا أن تعلّق فوق المرآة خرزة زرقاء.. «وخرزتين من عند الشيخ بهاء..»».

ارتجّ المقود فجأة بين يديه وجمحت السيارة نحو اليمين.. ثم

نحو اليسار شد لجامها.. خفف السرعة.. ثم توقف وجذب المكبح اليدوي نحو الأعلى.. فتح باب السيارة وأراد أن يترجل ولكنه لم يجد مكاناً يضع قدمه عليه.. جمع كل ما يملك من صلابة وحزم.. وغاص بجزمته الجلدية في المستنقع.. وغاص جسده في ضباب العتمة والليل.. وسرعان ما اكتشف أن الجبل يحمله ويحمل سيارته على أعلى قمة في جبل العرب.. سيارته التي كانت منذ قليل تتسلق الطريق الجبلي الضيق المتعرج بمنعطفاته الأفعوانية الحادة.. وأشجاره البلاستيكية اللماعة.. ومستنقعات النايلون المنتشرة في كل مكان.. واشتعل عود الكبريت بشكل انفجاري خلف التلال المخروطية الجرداء ثم خبأ فأضاء بوميضه أسنان الجبال البيضاء المجاورة وعمّ الظلام من جديد.

تفحّص الأستاذ فايز «الحذوة الأمامية للحصان المعدني»، ربّت على رفرافه البارد مشجعاً نفسه ووضع، كما يفعل السائقون، حجراً وراء العجلة الخلفية كي يتمكن من الإقلاع بدون مشاكل.. ضغط على دواسة البنزين فشخر المحرّك واهتزت العلبة الأنيقة.. الصعود إلى الجلجلة قاس.. ولكن ليس على المارسيدس.. أنزل السرعة الأولى مكان الثانية وضغط مرة أخرى على الدواسة.. هيا.. إيه تحركي.. بضعة كيلو مترات فقط.. بضعة كيلوات.. ولكن الحصان المعدني تحرك إلى الخلف.. برك على قوائمه الأربعة المحجلة وبدأ يغرق في ضباب الغيمة الجهمة الباردة التي تطوق المكان.. قفز من جديد خارج السيارة.. انحنى تحتها.. تلوثت ربطة عنقه بالماء والطين.. تفقد العجلات بواسطة الفانوس اليدوي الصغير، وعندما اكتشف الخلل مسح الجبال المحيطة السوداء بنظرة قهر متشائمة، ثم استقرت عيناه على الهاوية.. ضرب العجلة الأمامية المعطوبة ببوز جزمته المدبب وأخذ يدمدم بكلمات غير واضحة.. وعندما أكمل شتائمه للعجلات

والدواليب ولجدها الأول اشتعل عود الكبريت من جديد خلف الجبال، انشقت الغيوم وراحت تصب غضبها على رأس الفارس الشجاع الذي تحدى الوعر والجبل فكبا حصانه في غربة هذا الليل الموحش.. لقد تجاوز المدينة منذ أكثر من نصف ساعة، كانوا قد نصحوه وحذّروه من الطريق الصعبة الشائكة في مثل هذا الطقس: وديان ومنزلقات ووعر تعجز الخيل عن تجاوزه، ولكنه ركب رأسه وركب سيارته وانطلق نحو الهدف.. نحو تحقيق الهدف، غير عابئ بما يقولون.. طريق صعبة، يقولون ذلك كما لو أنه لا يعرفها.. وممَ يخاف ها؟ إنه يملك بندقية آلية بثلاثين طلقة وأربعة مخازن، 120 طلقة، بما فيها الطلقات الخطاطة، وفوق ذلك مسدس براوننغ (9 مم)، وفي أسوأ الحالات يستطيع أن يقفل زجاج المارسيدس بشكل جيد وينام في أي مكان كان، مكيّف، وفراش من المخمل.. ويستطيع أن يعرّج على أية قرية مجاورة.. ما أكثر الأصدقاء في هذا الجرد.. قال طريق صعبة قال..

تحت وابل من المطر والريح والزمهرير وعلى ارتفاع (1300 م) فوق سطح البحر، كان عليه أن يقرّر: إما أن يدخل إلى السيارة ويقفل زجاج المارسيدس عليه حتى الصباح، وإما أن يغيّر العجلة المعطوبة بسرعة ويتابع الطريق.. أما اللجوء إلى قرية مجاورة من هذه القرى المعلقة على سفح الجبل فقد كان ممكناً.. ولكن مستحيلاً في مثل ظروفه.. لأن قرية «أم الورد» قرية مهربين وحرامية ولا يأمن على نفسه منهم رغم كثرة الأصدقاء.. وفي قرية «غندور» ولأجل الصدفة لا يعرف أحداً ولا يريد أن يتعرف على أحد.. وغير ممكن طبعاً أن يطرق هو أبواب الغرباء ويطلب مأوى، لفايز الأصيل..

وكذلك أهل «سالة»، وأهل «المشنّف» فهم أعداؤه الحقيقيون.. أعداء العائلة.. وقد نجح في الانتخابات الأخيرة رغماً عن أنوفهم.. وأما «الغيضة» فهي قرية نائية تبعد على الأقل (30 كم) من مكانه..

وماذا لو سألوه عن وعوده وعن حاجاتهم.. ماذا لو سألوه عن المرافقة: «أين حراسك يا أستاذ فايز؟» «فماذا يقول لهم..» «ولو.. وهل يحتاج الإنسان إلى حراسة بين أهله وأصدقائه..».

هبط الليل دفعة واحدة وبشكل مفاجئ.. ونشب بين الأستاذ فايز الأصيل وبين الطبيعة صراع خفي مشوب بالخوف والتحدي.. ركض مسرعاً إلى باب السيارة فتحها وجلس خلف المقود.. مسح قطرات المطر عن وجهه الحليق المعطر، وأشعل الضوء الباهر لمصابيح السيارة المارسيدس..

كانت المسَّاحات وهي تزحف متسابقة على الزجاج تشبه ذراعي امرأة تولول ملوحة بيديها العاريتين محدثة هذا الصرير الجنائزي.. بينما ينقشع خلفها - تحت الأشعة الصفراء - شبكة متوحشة من خيوط المطر والريح التي أخذت تهاجمه وتنفذ إلى عظامه.. وجلجل صوت الرعد ثانية فاهتز الكون وتردد الصدى بين الجبال محدثاً تلك القرقعة الجبارة.. «غيمة وسوف تزول» هكذا اعتقد وراح ينظر محدقاً في المدى المضاء بأشعة المارسيدس الصفراء.. لكن الجداول بدأت تتشكل وتتجمع منذرة بخطر السيل.. وأي شيء يمكنه أن يوقف هذه الكتلة المعدنية إذا ما تشكل؟ سيجرفها كحصاة صغيرة ويقذفها إلى قعر الوادي.. وماذا سيقولون عنه؟ نام في سيارته حتى الصباح.. لقد نصحناه.. وفجأة أشعل الضوء الداخلي.. رفع الطراحة.. تناول البندقية.. هيأها.. فتح الباب وذهب مباشرة إلى صندوق العدة في المؤخرة، أسند بندقيته على الباب الخلفي، أشعل الفانوس اليدوي وأخرج «الكريكو» الرافعة ومفتاح الجنط والساعد.. حاول أن يثبت الرافعة تحت جسر السيارة خلف العجلة الأمامية المعطوبة ولكن دون جدوى.. كان المطر هو عدوه الأول في هذه اللحظة.. كل شيء ينزلق وينجرف ويتحرك.. لو كان يملك خيمة كبيرة أو شادراً يغطي به

السيارة.. ولكن ما نفع كل ذلك.. الجداول تأتي من الأعلى، من قمم الجبال، من الغيم.. تتجمع وتجرف معها كل شيء.. وكان الليل هو عدوه الثاني.. لو تعلّم فك العجلات وتركيبها.. لهان الأمر عليه.. ولكن هذا المطر هذا المطر الملعون.. أما البرد والريح والرعد، فلم يعد يشعر بها إطلاقاً، أهم شيء الآن - في هذه الظلمة الحالكة أن يثبّت تاج الرافعة تحت الجسر، ويرفعها ثم يفك العجلة.. يبدلها.. وينطلق من جديد.. وهل يملك عجلة احتياطية نعم في الصندوق الخلفي.. هذا ما قاله أبو محمود.. أخ لو كان هذا السائق المنافق موجوداً إذاً للقنه درساً لن ينساه.. ولكن والحق يقال حذرني.. نعم حذرني.. لم أسمع كلامه ابن الكلب.. «لو كنت مكانك لما خاطرت..» لعن الله الشيطان والنسوان..

كان المطر ينصب عليه صباً.. وكان عليه أن يرفع.. يفك.. ويركب.. ولكنه بيده الوحيدة لا يستطيع أن يفعل ذلك كله، والفانوس اليدوي لا يمكن الاستغناء عنه.. ألا يوجد في سيارة المارسيدس ضوء خاص لمثل هذه الحالات.. الفانوس لا يعمل إلا إذا ضغطت على هذا البزال الحقير بإصبعك.. فكر أن يثبّت الفانوس تحت السيارة.. أن يضع عليه حجراً.. أن يشده بخيط أو مطاط.. ولكن الفكرة سرعان ما تبلّلت بالماء وسحبها الجدول الذي بدأ يتعاظم مع مرور كل دقيقة.. حاول أن يثبت الفانوس بأسنانه.. تحت إبطه.. بين فخذيه بواسطة ذقنه.. وعندما فشلت كل محاولاته.. أخذ يستخدم الفانوس بالتناوب: يشعله عندما يحتاج إليه ثم يضعه في جيبه ويكمل عمله بواسطة اللمس.. كان يتسابق مع الزمن.. ومع الجدول.. ومع الليل والسيل المؤكد الجارف.. مع الانزلاق الحتمي إلى الوادي.. إلى الهاوية.. كان يتسابق إذاً مع الموت.. يريد أن يسبقه.. أن يتجاوزه ويصل قبله إلى الهدف ولو بخطوة واحدة.. وما هو هذا الهدف.. ماذا أراد.. وماذا

يريد.. وخطرت له قصة الرجل السيبيري الذي ضل طريقه في السهب الجليدي الشاسع، وأكلت الذئاب راحلته.. ومع ذلك لم يمت.. نعم «ليس في السهب وحيدا».. وسقطت عيناه إلى الهاوية مرة أخرى.. وحاول أن يرى الطريق.. أي طريق، أن يلحظ إنساناً.. أن يسمع صوتاً لعابر سبيل.. ثم تابع عمله دون أن يدري ماذا يفعل وكيف..

استطاع أخيراً أن يرفع السيارة بواسطة الرافعة والحجارة.. ولكنه اكتشف وبعد فوات الأوان أنه كان يجب عليه أن يحل البراغي قليلاً قبل أن يرفع الدولاب عن الأرض.. وأخذ يشد.. يثبت العجلة برجله ويشد.. ثم وضع حجراً تحت الدولاب وأخذ يشد من جديد.. كان قوي البنية.. ولكن البرغي الأول - هذه الأسوارة الفولاذية المضلّعة الصغيرة كانت تقاوم وتمانع رافضة الدوران إلا مع الدولاب.. دولابها.. «أبو محمود يا ابن الكلب كيف نفك البراغي.. نحو اليمين أم نحو اليسار..»، وانزلقت قدمه فوقع على وجهه.. على الطين مباشرة.. «يلعن رب السيارات على رب الساعة».. ونهض «ثبت الدولاب بشكل جيد.. جمع كل ما لديه من قوة وغضب.. وبضربة واحدة قاسية نحو اليسار. هب.. وإذا بالبرغي يرضخ ويدور مع المفتاح.. أخذ البرغي ودسه في جيبه، وهكذا فعل مع البرغي الثاني والثالث والرابع.. ولكن البرغي الأخير كان ملتحماً تماماً.. متعشقاً مع الدولاب، بقي يعالجه أكثر من نصف ساعة حتى حصلت الكارثة.. الكارثة الكبرى التي لم يحسب لها حساباً.. انقرف البرغي ووقع على الأرض في سيل الماء.. ووقع هو أيضاً من شدة العزم وطار المفتاح من يده.. لم يبال.. بحث عنه.. لم يجده.. وجد المفتاح.. ولكن المصيبة أن الدولاب رفض الخروج من مكانه.. انقرف البرغي يعني - بالنسبة للسائق - حتى وإن كان مبتدئاً - لا تحاول.. انتهى.. لن يخرج الدولاب

بهذه البساطة، ولكن الأستاذ المسكين - حاول، واستمر في محاولاته رغم الفشل المتكرر.. ونجح أخيراً ولكنه ما إن أخرج العجلة من محورها - وهو يهز السيارة هزاً - حتى انزلقت الرافعة وانطبقت السيارة على ذراعه، فالتصق وجهه بالطين.. وزاغت عيناه وخار بصوت مذبوح.. وهو لا يعلم بعد ماذا حصل بالضبط.

ماذا حصل..؟ واشتعل عود الكبريت من جديد وشق السماء بتياره الكهربائي المتكسر.. وفرقع الرعد مقرقعاً فهز غربال الغيوم بعنف وتعاظم صبيبها فوق سيارة المارسيدس السوداء، حتى أصبح كالشلال المصحوب بالبرَد والذي ينسكب خصيصاً في هذا المكان فوق صخرة الفولاذ السوداء اللامعة ليغسلها مما علق بها من آثار الطرقات.. للوهلة الأولى كان مأخوذاً بما حدث.. بهذه السرعة وبهذه القسوة.. للوهلة الأولى صرخ: يا لطيف.. كان كمن يشاهد ما حدث.. توقع كل شيء.. كل شيء ما عدا هذا.. كان واثقاً بهذا العفريت.. يا للسخرية.. حاول أن يتحرك.. لم يستطع.. كان حرف السيارة منغرساً في لحمه.. يسحق عظم ذراعه، والطين يملأ فمه وعينيه.. يلطخ شاربيه وأهدابه وشعره الأشقر الأشيب.. وفجأة أصيب بالرعب.. احتله الذعر.. حرك يده اليمنى، كانت سليمة وطليقة.. شد يده اليسرى وصرخ في اللحظة ذاتها من الذعر.. كانت اليسرى هي التي تشده، وعندما اكتشف أنها بقيت تحت السيارة.. تحت الـ.. لا.. لا.. وحاول أن يسحبها.. أن يستردها.. شدها بجنون غير عابئ بالألم.. نار.. نار.. وماء.. لا.. لا.. أصيب بالدوار.. (1500 كغ) من الحديد تجثم على ذراعه اليسرى.. رجل وحيد.. صدره مشدود إلى الأرض.. كله مشدود إلى الأرض بالقوة، والقلب ينتفض مذعوراً ويلطم القفص الصدري من الخوف.. والألم.. ألم جسدي لا يقاوم وعذاب روحي فريد.. الخوف.. الخوف من الموت. أن تراه مجسداً بعينيك خارج

الجسد.. أن تحمله على كتفيك.. الرعب من الوحدة.. من الغربة.. من أن تموت وحيداً وغريباً.. من الليل.. من المطر.. يا للسخرية والمرارة.. هي صُنعت أصلاً كي تحملنا وتنقلنا وتمنحنا الراحة والسعادة.. المارسيدس..

بدأ يشعر بشرايينه تنبض وتنقطع.. بعظامه وهي تطقطق كقشر الجوز.. وقرر مع ذلك أن يقاوم.. إنه الآن يحملها على ساعده (1500 كغ) من الحديد والمخمل سيرفعها ويقذف بها إلى الهاوية ويسترد يده.. كان يفرفر مثل عصفور وقع رأسه في الفخ.. مد منقاره كي يلتقط حبة القمح فانطبق الفخ على رقبته، وراح يفرفر ويهذي بجناحيه جاهداً أن يحمل موته ويطير.. ثم سكن.. أن أنين الموت.. صرخ رافضاً.. انتفض.. ثم استغاث بصوت واهن مستسلم: يا.. نا.. س يا.. نشا.. ما.. سا.. عدو.. ني ي ي.. ثم بكى.. ودبت الروح فيه من جديد.. كل ما تبقى له من أمل في هذه الحياة هو أن تمر سيارة.. عابر سبيل.. أن تحدث المعجزة.. كما في الأفلام.. كما حدث للرجل السيبيري التائه.. ولكن من سيفكر بسلوك هذه الدرب.. وفي مثل هذا الوقت.. وانتبه: ضوء سيارته الأصفر يشق العتمة.. يا.. نا.. س.. يا عا.. لا.. م م م.. كان الجدول يلطم جسده المعترض كغصن يابس ثم ينحرف عنه ويتابع جريانه مرتعشاً وكان المطر قد بدأ يهمي ثقيلاً ممزوجاً بحبات البرد الناعم.. وتوقف عود الكبريت السماوي عن الاشتعال.. وصمت الرعد.. وبقيت السيارة السوداء جاثمة على ساعد «صاحبها» تنغرز في اللحم كالقيد الحديدي.. كان يغيب عن الوعي حيناً ثم يصحو.. فيكافح ثم يغمى عليه من جديد.. وتمنى لو يأتي السيل ويخلصه.. يجرفه إلى قعر الوادي مثل الحصى.. لماذا وضع خلف العجلة حجراً.. لولا هذا الحجر لانزلقت السيارة الآن.. وتحسس مسدسه ثم التفت إلى البندقية البعيدة.. البعيدة المتكئة على

مؤخرة السيارة.. يا للمهزلة.. وما نفع هذه البندقية الآلية.. ما نفع المخازن والطلقات.. هل يطلق النار على هذه المارسيدس أم يطلق النار على الموت.. ولكن نعم لماذا لا يطلق النار.. لماذا لا يستغيث.. نعم يستغيث بواسطة الرصاص.. وإذا لم يسمعه أحد.. إذا لم يرد عليه أحد.. يترك طلقة واحدة للرأس.. سحب مسدسه بصعوبة.. احتار كيف يلقمه.. حاول حاول.. ولكن الألم أعياه.. والبندقية كانت هناك متكئة على الباب الخلفي تنفرج عليه وتغتسل.. إنه لا يستطيع الوصول إليها.. وحاول من جديد.. وضع المسدس بين رجليه.. تحت إبطه.. وأخيراً استخدم أسنانه.. وحاول أن يلقم.. ولقم بالفعل.. ضغط على الزناد.. ودوت الطلقة الأولى وابتلعت الرطوبة الصدى.. كان الصوت في هذا الصمت الموحش هائلاً ولكنه شعر كما لو أنه فقاعة.. وأطلق مرة أخرى وثالثة ورابعة وخامسة.. وكان يصرخ ويستغيث.. وكان صوته أقوى من الطلقات.. ثم خيم الصمت.. القاتل المخيف.. السيل.. السيل.. أين أنت أيها السيل.. لقد وعدت وتأخرت.. حتى الطبيعة تآمرت عليه.. لو كان يملك سكيناً سيفاً أو أي آله حادة.. إذاً لبتر ذراعه من الكتف وتحرر.. لتركها تحت السيارة وانطلق.. ركض ركض.. رجل بدون ذراع.. أكتع.. الأستاذ فايز الأكتع.. وتذكر زوجته وأولاده.. وشعر برغبة شديدة في البكاء في الصراخ كالوحوش.. وبأعلى صوته.. في وجه الكون.. لو يستطيع أن يرج هذه السيارة.. هذه الجبال.. مثل الرعد.. ويملأ الوديان بالنداء.. ولكنه لم يقوَ حتى على الصراخ.. وينظر من جديد إلى تلك البندقية الوقحة ويهم بالزحف نحوها.. ولكنه يشعر بالتراخي والكسل.. بالوهن والاستسلام، وتحسس المسدس مرة أخرى.. لماذا لم يترك طلقة واحدة.. طلقة واحدة فقط كانت تكفي لإنهاء هذه المهزلة.. آخ «السيل.. السيل.. أيها السيل.. لماذا وضعت حجراً خلف العجلة.. بدا

كما لو أنه أخذ يصاب بالشلل الكلي.. وفقد القدرة على الحركة والتفكير.. وبدأ يميل إلى النوم.. إلى السبات والسكون.. وفجأة التمع في العتمة ضوء شاحب، ضوء غريب يشبه السراج البعيد البعيد، بصيص جمرة يغلفها الدخان.. بل هما جمرتان اثنتان.. نعم جمرتان.. متجاورتان.. هل بدأ يهذي؟ هل خيّل إليه ذلك؟ كان ضوءاً بعيداً نائياً كشعاع نجمة.. وتحرك فيه الأمل من جديد.. نسي نفسه وأوجاعه وصرخ من أعماقه: إيـ.. هـ.. أنتم م م.. إيـ.. يه.. يا.. هو و و يا.. نا.. س س س.. النجـــ.. د.. ة.

انبثق إلى جانب الضوء الأول بصيص آخر جمرتان متجاورتان.. جمار مشاعل مشاعل.. إنهم قادمون.. ولكنهم.. لا يتقدمون.. تنبثق الأضواء وتبقى في مكانها.. لا تتحرك.. وعوى.. وبشكل لا إرادي أمسك بالمفك الفولاذي وراح يدق على صاج السيارة كالمجنون.. ويعوي.. ولكن الأضواء كانت تختفي عندما يدق وتعود من جديد.. تتلاشى تختفي تماماً.. ثم تنبثق ثانية ولم يعد يبصر شيئاً.. وطرق من جديد.. دق بقوة أكبر.. دق بعنف.. فانزلقت البندقية الآلية ووقعت على الأرض.. آخ لو يستطيع الوصول إليها.. وزحفت رجلاه نحوها.. غالب الألم.. لم يعد يشعر أصلاً بالألم.. تطاول.. تطاول ولكن دون جدوى.. وانبثقت الأضواء الحمراء الغامضة من جديد.. إنهم قادمون لقد سمعوا صوته.. خيّل إليه بأنهم لا يسمعون.. ولكنهم سمعوا وهم قادمون لنجدته.. نعم.. نعم.. سمعوا.. وجلجلت أصوات الطرقات المعدنية الصاخبة المتواصلة.. وقلدها الصدى.. ومرة أخرى اختفت المشاعل وخيّم السكون.. ألا يبصرون هذه الحزمة الضوئية الصفراء للسيارة..؟ إنه هنا. ويحتاج إلى مساعدة. ألا يسمعون هذا الصوت المستغيث..؟ أيها المهريون الطيبون.. يا أهل المشنّف.. اقتربوا بمشاعلكم.. هل يعقل أن تكون هذه المشاعل سراباً.. وشعر بالدوار..

وزاغت عيناه.. لم يعد يبصر.. أصبح كل شيء سراباً بسراب.. إنه يهذي.. يسقط في اللجة السوداء ببطء وتخرج الروح على مهل من ذراعه الأيسر.. تتلاشى مع صوته المستغيث الملهوف.. تترك هذا الفراغ المفزع.. الموت.. نعم.. هذا.. هو.. الموت.. أيتها المارسيدس لا.. لا لا لا.. لا أريد أن أموت.. حياتي بدأت منذ أيام فقط.. منذ أيام قليلة بدأت أعيش.. ولماذا أموت.. لماذا أنفق هكذا وبهذه الطريقة البشعة..؟ يا.. رب.. دعني أصل إلى البيت فقط وهناك خذني إليك.. افعل بي ما تشاء.. ولكن.. هناك.. بين الناس.. بين الأهل.. بين الأحياء.. وانبثقت المشاعل - هذه المرة بالقرب منه.. فوق رأسه تماماً.. وسرت فيه قشعريرة فاقت كل آلامه.. وبشكل آلي تناول مفتاح البراغي واستعاد قدميه المبعثرين.. وتكور على نفسه بحذر شديد.. إنها الضباع.. الضباع ذات الرائحة الكريهة.. وهذا واحد آخر وثالث ورابع.. يا إلهي.

لا تخف.. الضباع لا تهاجم الأحياء.. تنتظر الضحية حتى تنفق.. ولكنها.. إنها تقترب تحاصرني ببطء.. تحاصرني من كل الجهات.. وسوف تنقض.. سوف تنقض.. لا تخف الرائحة ليست ضباعاً.. رائحة جيفة.. كل الوحوش لها نفس الرائحة.. وفكر أن يخرج الفانوس اليدوي ويسدده نحو الضباع.. الضباع المحايدة.. الباردة.. البطيئة.. ولكنه لم يجرؤ أن يترك المفتاح من يده وسمع فرقعة وعريراً.. لا تخف.. الضباع لا تهاجم الأحياء.. والضباع لا تكون مجتمعة هكذا.. الضبع يبول على ذيله ويرشق الضحية.. يسيطر عليها، يضبعها بالمفاجأة والرعب.. ويقودها إلى مغارته.. لا تخف.. لا تخف.. ولم يكن الرجل خائفاً الآن.. فقد الإحساس بالخوف.. إنه صاح.. ومنتبه.. وقوي كما لم يكن من قبل.. صاحٍ ومنتبه وقوي رغم ضعفه.. عيناه عشرة على عشرة والمفتاح الحديدي يلتمع في قبضته..

وهوى بعنف على صاج المارسيدس.. فتلاشت المشاعل على الفور واختلطت بالعتمة.. يجب أن يصل إلى البندقية يجب أن يصل إليها بأي شكل.. سيقطع هذه اليد الخائنة الغدارة سيقطعها ويصل إلى البندقية.. سيقتل الضباع بها.. سيرفع هذه الصخرة المعدنية.. يقذفها إلى الهاوية ثم يتناول البندقية ويقتل الضباع.. وأرسل قدميه باتجاهها ولكن البندقية كانت بعيدة جداً.. جداً.. وحاول بالفعل أن يرفع السيارة بواسطة المفتاح غير مكترث ولا شاعر أصلاً بالخلايا التي تتمزق والعظام التي تسحق.. غير مكترث بالبرد والثلج، الذي بدأ يهطل بغزارة دون أن ينتبه.

ومرة أخرى بصبصت الجمرات الحمراوات فانكمش، وهوى على الصاج بمفتاحه وتشتتت المشاعل ثم عادت.. وعاد هو يطردها بطرقاته في كر وفر حتى أصابه الإعياء التام.. والخواء.. ظل يضرب ويضرب بكل ما يملك من قوة حتى عجز عن رفع يده.. وانتابه الرعب من عجزه.. وشجّع نفسه.. أهم شيء أن تبقى يقظاً.. ألا تفقد توازنك.. ألا يغمى عليك.. كلها ساعات ويطلع الفجر. لا بد أن تمر سيارة ما.. أن يعبر المهربون بالقرب من المكان.. إيه أيها المهربون الأنانيون.. يجب أن تبقى صاحياً يجب ألا تدير ظهرك للضباع.. قاوم النعاس والدوار والزوغان.. قاوم الوهن.. قاوم الرعب بالرعب.. قاوم الرعب.. قاوم.. وخارت قواه.. ظل يضرب ويضرب ويضرب حتى خارت قواه دفعة واحدة.. حاول أن يرفع يده.. حاول أن يضرب على الصاج ضربته الأخيرة كي يعيد الثقة إلى نفسه.. كي يبعد الخطر المحدق به.. ولكنه لم يستطع.. قذف بكل شيء إلى الشيطان.. وترك يده الثانية تهوي على الأرض.

في الليلة نفسها في قرية «المنشف» التي تبعد خمسة عشر كيلو متراً عن مقدمة سيارة المارسيدس السوداء - مات الشيخ ضياء

ركاب.. وأصابت أهالي «المنشف» الدهشة والعجب من هذا الوهج الرباني النوراني الذي أطل على القرية من خلف الجبل فأضاء السماء وبقي الضوء طيلة الليلة كما لو أنه فجر ينبثق ولا ينبثق، ضوء أصفر.. بهي ساطع وواضح..

نور من نور الخالق سبحانه.. جذب النور أهالي القرية فخرجوا من منازلهم وصعدوا إلى السطوح والمرتفعات سبحان الخالق.. رحمة الله عليك يا شيخ.. إنه من الصالحين.. سبحان الله.

ظلوا حتى الفجر الحقيقي وهم يترحمون على روح الشيخ الجليل الصالح التي صعدت إلى ربها بعد بزوغ الفجر بقليل..

وفي الصباح.. انتشر الخبر: سيارة مارسيدس سوداء، بدون نمرة تعطّلت على حافة الطريق بسبب الثلج.. عجلاتها مغمورة بالثلج.. وما زالت تحملق بأضوائها الصفراء في قمة الجبل..

وعاد الثلج يهطل بغزارة.. ويغطي كل شيء..

تدمر

15 / 12 / 1985

الغول والزغلول

نظرت إليه.. راقبت بقع الدم البنية الداكنة المتفشية تحت جلد يديه ووجهه ورجليه.. راقبت أظافره الطويلة، التي قمت بتقليمها منذ أكثر من شهرين.. توقفت طويلاً عند أذنيه الأسطوانيتين الضخمتين المركبتين تركيباً على قوس رأسه الكبير واللتين تتهدلان خاصة عندما يكون حزيناً.. وتتأرجحان بشكل مضحك كلما تلفت بسرعة نحو شيء ما.

لقد كان «الغول» عملاقاً لا شك في ذلك، ولكنهم ضغطوه بقوة حتى أصبح بهذا الحجم المزري.. والدليل الأقطع على ذلك ليس أذنيه الفيليتين، وإنما هاتان اليدان الطويلتان أكثر مما يعقل..

كان يحتاج إلى بضعة سنتمترات فقط كي تصل أصابعه إلى الأرض وهو منتصب طبعاً فهل تصدقون هذا؟ وهل تشكون بعد ذلك بأنه كان طويلاً.. طويلاً كان..

هم يقولون: إن انحناءاته - الطفيفة - أو بالأحرى - إن عاهته المخيفة - هي السبب. ولكنهم يبتعدون عن الحقيقة كما تبتعد أصابع الأطفال عن النار..

الحقيقة التي تدينهم، وتكشف تحدب ظهورهم، المقوسة من الأرض إلى الأرض.. ألم يقل لهم ذات يوم: ليس هناك أكثر سخرية من البغل العمودي الذي يمشي على قائمتيه الخلفيتين مصفقاً بحافريه وهو يردد: «منتصب القامة أمشي»..

ألم يقل لهم: إن الشاقول ليس دائماً على حق فالحيوان أيضاً يمشي على قوائمه الأربع منتصباً.. ولكن بشكل أفقي..

لولا هذه الصلعة الخبيثة - القريبة للقلب - التي تهيمن على وجهه البريء لقلنا إنه طفل تجاوز العاشرة.. ولكنه يقول إنه بعد ثلاثة أشهر يكون قد مضى على ميلاده نصف قرن..

لا تصدق..

أنا لا أصدق.. أنظر إليه طويلاً وأتساءل: ألا يكذب هذا الوجه المطمئن..؟

إنه يكذب بالتأكيد.

بالتأكيد؟

ولكن لماذا؟

لا أعرف..

بل تعرف.. كلنا نعرف..

لا يجوز أن نعامله معاملة الإنسان السوي.. وجه أبيض مستدير ممتلئ، خال من الغضون تقريباً.. عيناه سوداوان مسيجتان بأهداب أنثوية لا تكف عن الرفيف.. أذنان صغيرتان.. صغيرتان لدرجة تجعلك تفتقد وجودهما.. وجنتان نافرتان.. أنف مستقيم.. فم مكوّر أحمر.. وذقن مدوّرة قصيرة..

يأسرك هذا الحنان الناضح من خلاياه.. من نظرته.. من لكنته.. من حديثه الهادئ.. حتى عندما يغضب منك، أو عليك، يغضب بحنان.. يجعلك ترتبك. يصافحك كما لو كان يخاف عليك أن تقع كما لو أنه ينتشلك من الجورة ويتحدث معك همساً كما لو أنه يخشى أن يوقظك من النوم..

كثير الانتباه.. قليل الكلام.. هادئ.. واثق من نفسه.. أنيق الملبس.. أنيق حتى في تعامله مع الأشياء.. نظيف.. صادق.. ذكي متواضع.. ألمعي.. غيور.. متفان.. صلب.. مثقف.. أنيس.. إنسان حقيقي.. وفوق ذلك محبوب ومحترم من قبل الجميع..

الجميع، باستثناء شخص واحد هو أنا..

أنا؟؟

أنا الوحيد الذي كان يحبه ويحترمه بشكل من الأشكال.. ولكن عندما تكسر البيضة ويمتزج الصفار بالبياض، فمن الصعب جداً فرزهما بعد ذلك.. ملح وسكر.. سكر وملح وماء..

عندما كان ملاكاً بجناحين شفافين، مزقوا جناحيه – وأشاروا بأصابعهم المعقوفة إلى قرنيه فقط.. وعندما أصبح كما يريدون.. غولاً.. أو شيطاناً بقرنين من الفحم الحجري في فضاء أبيض – حملوا فؤوسهم ومطارقهم.. حملوا أحذيتهم وطوقوه وهم يجعجعون: شيطان.. غول.. شيطان.. شيطان..

هل كانت أذناه صغيرتين حقاً لدرجة تجعلك تفتقدهما؟ أم كبيرتين تتأرجحان بشكل مضحك عندما يضحك..؟

هل كان وجهه وجه طفل؟ أم شيطان؟؟

لا أحد يستطيع أن يؤكد أو ينفي.. وليس هذا هو الأهم وإنما أولئك.. أصحاب المساطر العرفية المقدسة، ذات الأطوال المعلومة، التي لا تتغير ولا تتبدل مهما تعاقبت الأزمان وكيفما هبت الريح وتغيرت الأحوال..

الذين ينظرون إليك من الأعلى إلى الأسفل، ومن الأسفل إلى الأسفل إلى الأعلى، وبالعكس.

ثم يستلون مساطرهم الخفية من الجيوب الخلفية لسراويلهم، ويقيسون طولك وعرضك.. درجة حرارتك، إيمانك، فكرك، وعيك، لا وعيك.. يقيسون رائحة فمك.. رائحة ذهنك.. طول أنفك.. أصابع يديك.. وحتى أعضاءك السرية المباركة.. والويل لك.. الويل كل الويل لأبعادك الثلاثة إن كانت أطول، أو أقصر.. أو أعمق.. من مساطرهم..

قادرون على التحليل قدرة كلية خارقة تفوق قدرة الطبيعة ذاتها.. ولكنهم عاجزون عن التركيب عجز الرمل الناشف..

قادرون على بعثرتك شظايا ناعمة.. ولكنهم عاجزون عن جمعك كحجر صلد..

بورجوازي صغير، انتهازي كبير، طائفي، ديماغوجي، عشائري، بيروقراطي، يساري جديد، بكداشي، تركي، فيصلي، مرادي، دموي، صفراوي، لقّاني، عجلوني، سلموني..

الناس هوة.. كان يقول..

نعم هوة.. كنت أردد..

وضعوه على المشرحة، وقصوا ساقيه من الركبتين.. ولم يكتفوا بذلك، بل أشاعوا أيضاً أنه رجل بلا ساقين.. هكذا خلقه الله.. حاولوا إقناع البلاطات.. وألبوا حتى شحاطته الوحيدة عليه.

كم تعذب حتى صدق ذلك هو نفسه.. وطأطأ رأسه.. كم تعذب حتى تقوس مثلهم..

كان يقول لي همساً: بعض المشارط ليس لها مقبض ولا حد، لكنها أدق من أشعة لايزر وأمضى..

وكان يشكو.. ويحدثني عن أشياء أعرفها أكثر منه.. وأشياء لم أسمع بها من قبل..

كنت أعلم أنه يخاف مثلاً من الأشياء المعلقة.. الأكياس والصرر والرفوف والمصابيح والكتب.. كان يخشى أن تسقط عليه في أي لحظة فيقولون: هذا الذي مات تحت كيس من الخرق..

ولذلك كان يتجنب المشي على الأرصفة.. ولكنه لم يكن ليبوح بهذه المخاوف لأحد.. كان يغير مكانه كثيراً وكانوا يعتقدون بأنه يفعل ذلك لسبب ما يخص أحدهم أو موجه ضد أحدهم.

في الفترة الأخيرة بدأ قلقاً فزعاً من شيء ما سيسقط عليه.. كان يقفز فجأة من مكان إلى مكان، وعيناه لا تفارقان السقف.. وعندما صرح لي بالسبب زال استغرابي ووجدت بأنه محق في ذلك:

كانت قطرة ماء وحيدة تقلقه.. تتدلى من السقف وتلاحقه من مكان إلى آخر.. قال لي: إنه تعرّف عليها لأول مرة في الحمام سقطت على سطح رأسه فكاد أن ينفلق..

أنا لم أجرّب ذلك مثله.. ولكنني أذكر عندما سقطت يد الهاون على رأسي.. أغمي علي ثلاثة أشهر متتالية - كما قالوا لي وكنت فتياً في ذلك الوقت.. ولذلك أعذره..

من يصدق الآن أن هذا الرجل الذي كان، أصبح يدب الآن كالمسخ على أرض ممسوخة.. هم يقولون: كان رائعاً.. كان جميلاً.. كان فتياً..

كان.. ويفسرون كل تصرفاته.. يعرفون لماذا ابتسم في هذه اللحظة.. ولماذا اتكأ منذ عام على كوعه الأيمن وماذا قال لزوجته عندما شاهدها تقبل عرنوس الذرة المسلوق..

يعلمون لماذا يرسم النجمة الخماسية في الهواء.. ونجمة داوود ونجمة مرسيدس بينز على قضبان الحديد وعلى بلاطات السجن وفوق المغسلة والصابون..

يعلمون بماذا يفكر منذ عشر سنوات.. وبماذا يفكر الآن.. وكيف سيفكر غداً..

نعم.. يعلمون بأنهم يعلمون كل شيء..

بحثت عن مقص الأظافر.. خبأته في قبضتي خلف ظهري وتقدمت نحوه كالعادة باحتفالية مسرحية ملفتة..

السلام عليك يا عمي الغول..

نظر إلي بوقار متوحش.. وكالعادة أيضاً خشّن صوته وقال وهو يمد أصابع قدميه باتجاهي:

«لولا سلامك ما سبق كلامك لافترست عظامك قبل لحامك».

ضحكنا بصوت مرتفع.. أما هم فقد امتعضوا هذه المرة كثيراً. بل أداروا ظهورهم بشكل استعراضي.. بينما قفز بعضهم من مكانه وخرج إلى الممر..

بعضهم، عمي الغول، الممر

هل كان هناك ممر..؟ هل حدث ذلك في بناية أم مغارة؟ ومن هو هذا الغول أخيراً..؟

الشاطر حسن كان وحيداً عندما واجه الغول.. حلق له شعره وقص أظافره في المغارة.. فعن أي غول تتحدث أنت أرجو المعذرة.. ربما أصابني ما أصابه.. لست الشاطر ولا بطل قصتي هو الغول.. إنما أردت أن.. أن أخرج عن الرتابة والمألوفات.. مللت.. فقررت أن أكتب قصة..

أنا لم أجرب ذلك سابقاً.. لست كاتباً.. ولم أمسك القلم منذ أن تركت المدرسة.. لا بل كتبت بعض الرسائل.. بعض الملاحظات العابرة على الكتب التي قرأتها «هذا كتاب رائع».. أو «لعن الله هذا

الكتاب».. أو «قصة شيقة».. ولكن كيف تُكتب هذه القصص.. ومن يكتبها.. لا أدري.. وفوق ذلك أنا مشتت الذهن مقهور.. شاءت الظروف أن أعيش في مكان واحد لمدة طويلة.. طويلة.. فماذا تريدون.. قلت أتسلى.. أعبر عن مشاعري المخيفة.. فأمسكت بهذا القلم المنجّر وبدأت أكتب..

هم قالوا إنني أرى الأشياء المزيفة.. أما الأشياء الحقيقية المرئية من قبل الجميع فلا أراها.. وأنا أقول لهم: كيف.. أحقاً لا ترون الأجنحة الذهبية لهذا الملاك؟ حتى بدأوا في الفترة الأخيرة - كما لو أنهم يشفقون علي.. ويتهامسون حولي.. فهمتم؟ أنا أعرف ماذا كانوا يقولون.. يقولون.. إنني.. أنا أعرف أعرف.. يختلفون معي باحترام وحب.. ولكن لماذا يقولون ذلك همساً فيما بينهم؟ لا أعلم.. إنهم.. لماذا أخذوا يربتون على كتفي ويمسحون على رأسي.. ويقولون لي.. صباح الخير أكثر من عشرين مرة في اليوم الواحد..؟ لا أعلم.. لا أعلم.. إنهم يحترمونني جداً.. ويحبونني جداً جداً.. هذا واضح من وجوههم وعندما أعود من الزيارة يتهافتون علي: الحمد لله على السلامة يا «أبو الغسن» كيف الأهل يا أبو الغسن.. ما الأخبار يا أبو الغسن؟؟ يسألونني عن ابنتي الوحيدة.. ويسمونها ولية العهد: كيف ولية العهد؟.. ألم تدخل المدرسة؟ ألم تتزوج؟؟ ويصدقون كل الأخبار التي أنقلها لهم.. مرة كذبت عليهم قصداً وقلت لهم: السماء تمطر في الخارج.. فصدقوني.. رغم أن السماء لا يمكن أن تمطر أبداً.. ولكنهم صدقوا.. فلماذا لا يصدقون أن للغول أجنحة شفافة.. وأنه إنسان.. إنسان رائع.. وإنه صديقي.. لا أعلم.. لا أعلم..

في الفترة الأخيرة - وأرجو أن يبقى ذلك سراً بيننا - صاروا يسخرون مني ويضحكون علي.. أنا.. كم أشعر بالخجل وكم أرجو أن يكون ذلك وهماً.. إنهم يشيرون إلي بأصابعهم وعيونهم.. يتغامزون..

ويتحدثون بقلوبهم.. وأعلم أنهم يتحدثون عني أنا بالتحديد.. أفهم.. ولا أعلم لماذا.. إذاً فأنا لا أفهم شيئاً.. فكرت كثيراً كثيراً.. هل أسأت إليهم.. إنني.. أحبهم حباً جماً.. ولكنني لا أستطيع التعبير عن هذا الحب.. فلماذا يزعلون مني كلما.. قلمت أظافر الغول أو هندمت ثيابه أو رفوت جوربه أو قميصه؟ ولماذا أرادوا ضربي عندما قلت لهم: أنتم على خطأ.. هذا زغلول وليس صابونه.. هل هذه جريمة؟؟..

بعيني هاتين - اللتين لم تأكلهما العتمة بعد - رأيته يخرج من الحمام عارياً، والصابون يقطر من كل جسده..

أذهلني منظره عندما شاهدت أصابعه الخمسة الضاغطة على بطنه بحنان وحرص.. الجميع ظنوا أنه - كالعادة - يخفي الصابونة التي استخدمها..

أنا.. صدمني عريه المخجل.. كان عارياً تماماً.. أعني كما ولدته أمه وصدمني أكثر أن الآخرين لم ينتبهوا لذلك أبداً.. لم يقيموا وزناً لرجل خرج من الحمام عارياً مثل آدم، ورغوة الصابون تغطي شعره وكتفيه.. وتسيل بين فخذيه..

هل رأيت بشكل سليم؟.. نعم تماماً..

دققت النظر.. رأيت رأساً صغيراً أسود له منقار أصفر يطل من كوة قبضته المكورة على بطنه.. رأس صغير يصدر صوتاً يشبه الاستغاثة أو إلقاء التحية..

سلط الغول عينيه الحمراوين علي أنا وقال هامساً:

ز..غـ.. لـ.. و.. ل..

كان الفرح هو الذي يقطر من جسده.. وكدت أجزم أنه فقد عقله عندما رأيت بؤبؤ عينه اليمنى يدير ظهره للبؤبؤ الأيسر..

ولسوء حظي.. كانت الرغوة تغطي شعر عانته بالكامل، ولذلك اختلط علي الأمر في البداية.. ثم فهمت أن الزغلول المقصود هو هذا الصفير المتخبئ في قبضة يده التي مدها إلي حتى رأيت.. ثم رفعها إلى الأعلى وأخذ يرقص ويغني.. بينما بدأوا هم يتهامسون بصوت مرتفع طبعاً..

صابون.. مابون.. دوله.. موله.. يجوز.. لا يجوز.. اتركوه.. امسكوه.. بسيطة.. إلى متى..

ثم كلفوا «أبو الشوارب» أن يتحدث معه بلطف..

تنحنح أبو الشوارب وقال بصوت جهوري:

يا غول يا حبيبنا.. لماذا تخبئ الصابون..؟ هذا صابون من عند الدولة.. يعني ملك الجميع.. لك ولنا.. كل واحد منا له حصة فيه.. فلماذا تخفيه..؟

أدار الغول رأسه بالاتجاه المعاكس..

-أخفي ماذا؟

-الصابون.

-أنا؟؟

-نعم أنت..

-أنا لم أستخدم الصابون منذ الحرب العالمية الثانية.

-يا غول.. يا حبيبنا يا عيننا.. يا رفيقنا.. كلنا رايناك..

-رأيتم ماذا؟

-رأيناك تسرق.. يعني.. أقصد رأيناك الآن عندما خرجت من الحمام.

-وأنا أيضاً.. أيضاً أيضاً.. رأيتكم..

-رأيتنا؟

-نعم.. نعم.. رأيتكم

-نسرق الصابون؟

-أي نعم.. رأيتكم.. تجلسون هنا.. على الأرض..

ضحك بعضهم.. حاول الآخر أن يغضب.. ولكن أصواتاً ترددت اتركوه يا أخي.. اتركوه.. خلص.. رجاءً.

كان الغول قد أخرج قبعة مصنوعة من الصوف ووضع بداخلها الزغلول على مهل ثم ركض إلى كيس الخبز المعلق في صدر المهجع أخرج قطعة وراح يلوكها.. تقدم أحد الغاضبين منه وسأله كما لو أنه كمشه في الجرم المشهود:

-وهذه؟ ما.. هذه؟

انتبه إليه الغول وقال بسرية تامة:

-زغـ.. لول.. اسمه.. انس..

-بلا هبلنه.. هذه هي الصابونة العاشرة التي تسرقها..

-لا.. تصرخ.. لا تصرخ.. رجاءً..

وعندما مدّ الغاضب يده إلى الصابونة وأراد أن يرفعها كي يراها الجميع، أمسكه الغول من تحت إبطيه بوحشيه.. وبضربة واحدة قذفه بعيداً.. فحصلت حركة عنيفة.. وأمسك بعضهم بتلابيب البعض.. كان الجميع يتكلمون بوقت واحد وبصوت مرتفع متحمس.. وهيئ لي أنني رأيت أحدهم يرفع سكيناً ويلوح بها فصرخت.. وهجمت باتجاه الغول كي أحميه من السكين.. ولكن المسكين كان

يردد.. الزغلول.. الزغلول.. أخذت الزغلول من القبعة ووضعته في قبضتي.. كان كتلة دافئة من اللحم الأحمر وقفت أمام صديقي وصرخت بهم جميعاً: انتبهوا.. انظروا إلى هنا.. إنه زغلول صغير سقط من عش القش على رأس الغول فأحضره كي نربيه معاً.. ثم نطلق سراحه.. ألا ترون أجنحته.. ومنقاره.. وعينيه.. هل يعقل أن يكون للصابونة العسكرية مثل هاتين العينين السوداوين.. فكروا قليلاً.. لو كان المخطئ فينا فرداً أو اثنين لقلنا أن الخطأ ممكن.. ولكنكم دزينة من الناس الواعين.. ألا تفرقون بين الصابونة والعصفورة..؟

وفجأة سمعت صوت صفعة قوية على خدي.. تلفت حولي.. في البدء ظننت أنهم ضربوه هو.. ولكن تبين بالدليل الحاد أن الصفعة كانت على وجهي أنا..

وقع الزغلول على الأرض.. كادت الأرجل تدوسه.. ولكن الغول رمى نفسه عليه، وخبأه مرة أخرى في قبضته العملاقة.. لم يكن من السهل علي فهم ما حصل..

كنت أريد أن أعرف فقط: لماذا ضُربت بهذه الطريقة؟ وما هو الخطأ الذي ارتكبته بحق هؤلاء.. الأعزاء.. هل كانوا مخطئين؟ الإنسان مجبول على الخطأ والصواب من منا لا يخطئ ولا تساوره الشكوك والظنون.. لكن هل يعقل أن يكونوا جميعاً على خطأ وأنا والغول فقط على صواب؟ هم مجموعة من العقول.. رجال أذكياء مثقفون مجربون.. ألم يشاهدوا زغلولاً في حياتهم؟ ألم يشتاقوا لرؤيته بعد كل هذه السنين؟ أم أن السجن يغيّر المفاهيم والمعاقيل.. قد أكون مخطئاً.. أنا.. بالفعل مخطئ ربما كان صابونة ولكن.. ولكنهم.. إنه زغلول.. والله العظيم زغلول حقيقي.. سمعت صوته بأذني ورأيت عيناه بعيني.. هل تغيّرت الزغاليل إلى هذه الدرجة..

لم أر زغلولاً أو أسمع صوته منذ سنين.. مرّ علينا صابون كثير.. صابون أخضر وأصفر وأبيض.. مرّت أمامنا عصافير كثيرة.. سمعنا أصواتها كل يوم.. ووقفت على حواف نوافذنا.. ونقرت فتافيت الخبز من راحاتنا.. ولكننا لم نرَ زغلولاً واحداً عارياً إلى هذه الدرجة.. ودافئاً كأصابع رضيع.. هل تغيّرت الزغاليل إلى هذا الحد؟ أم أن رؤوسنا لم تعد تستوعب إلا الأشياء التي نراها ونلمسها ونستخدمها كل يوم..

لم أستوعب حقيقة الأمر إلا بعد حين.. يبدو أن عقلي قد تبلّد بالفعل.. فالزغلول.. نفس هذا الزغلول منتوف الريش، الذي أحضره الغول من الحمام، وسماه أنس، أصبح بعد أيام طفلاً.. طفل حقيقي له اسم وأب وأم.. طفل يبكي ويضحك.. يتكلم ويكبر ولا شيء يمكنه الآن أن يقنعني بأن أنس كان مجرد زغلول..

كم كانت دهشتنا كبيرة عندما سمعناه يبكي لأول مرة.. كم مرّ علينا بعد ذلك من أعياد ومناسبات واحتفالات.. فصلنا لأنس سريراً صغيراً من خشب «الصحاحير»، وسيجناه بالأعمدة والعوارض، وزيناه بالشرائط والخرز.. وصنعنا له لعباً من العجين والورق.. وعندما كان يبكي في الليل كنا نستيقظ معاً أنا والغول.. نطعمه.. نسقيه.. نلاعبه نداعبه حتى ينام من جديد..

وكم كانت فرحتنا عظيمة عندما بدأت تطلع أسنانه اللبنية..

لم نكن نملك قمحاً كي نسلق له ونحتفل بطلوع أسنانه..

ولكننا سلقنا البرغل المطبوخ واحتفلنا بأسنان أنس..

هل كانوا يسخرون..؟ طبعاً كانوا.. ويتضايقون أيضاً.. لأننا عندما كنا نركض مع أو خلف أنس.. لم يكونوا هم يرونه.. وعندما كنا نتحدث معه ونعلمه المشي والكلام والطيران.. لم يكونوا هم يسمعون

لثغة أنس ولا يشاهدون نقلة قدمه الصغيرة.. أو خفقة جناحه الأزغب..

كنا نسمع التعليقات الساخرة ونطنش.. وكنا نسمع العبارات النابية.. وعبارات الشفقة والتحسّر علينا.. ونطنش.. وقد كان يحدث ان يطير أنس ويحط على كتف أو صلعة أحدهم ويزرق عليها فماذا تتوقعون..

حاولوا الإمساك به.. حاولوا طرده.. حاولوا قتله.. ولكنهم فشلوا.. فقرروا أخيراً طردنا نحن من المهجع.. وطردنا بالفعل.. أو بالأحرى نحن الذين طردناهم وخرجنا..

ذات يوم بعد أن أقفلوا الأبواب علينا.. كنا نلعب معه فوقف الجميع يحملون بأيديهم المناشف، ويلوحون بها لطرد أنس، دار دورتين في فضاء المهجع ثم خرج من النافذة إلى الممر، جن جنوني يومها فامسكت بشحاطتي وبدأت الطرق على الباب الحديدي الرمادي بقوة.. أمسكوا بي وهدأوني:

طول بالك.. ماذا تريد.. بسيطة.. قل لنا ماذا تريد..

انتظر حتى الصباح..

هل تعلمون ماذا ظنوا يومها.. ظنوا أنني أطلب إدارة السجن كي اشتكي عليهم..

قلت لهم: لماذا طردتم أنس..

قالوا: نحن لم نطرد أحداً.. كنا نكش الذباب.. كذابون.. كذابون.. كلكم كذابون.. اطرقوا الباب.. اطرقوا من أجل أنس.. حطموا الباب.. سيموت من البرد وقد.. قد تأكله القطة..

وهجمت بشحاطتي.. ولحسن الحظ عاد أنس لوحده.. استطاع

أن يعود.. زقزق.. أطل من النافذة ونظر إلينا برأس موارب أراد أن يعرف أن كنا سنحزن عليه أم لا.. ثم قفز من النافذة ووقف على رأس الغول..

وفي صباح اليوم التالي قدموا طلباً إلى إدارة السجن كي تنقلنا إلى مهجع منفرد.. وانتقلنا..

كم كان أنس أنيساً..

كم كان سعيداً بهذا المهجع الجديد..

تعلم المشي بسرعة مذهلة.. تعلم الكلام والغناء والرقص..

كان يركض في طول الدنيا وعرضها..

يملأ المكان زقزقة ودلعاً..

كنت أسقيه الماء من راحة كفي، وكان الغول يطعمه من فمه مباشرة.. يلوك الخبز ويطعمه.. وعندما كان يعطش يأتي إلي وعندما يجوع يدور دورتين حول الغول ويقف على كتفه..

كنا سعيدين جداً..

ولكن سعادتنا لم تدم لأن أنس توقف فجأة عن الحركة..

كان الغول يلاعبه.. رماه نحو السماء وهو يصرخ.. حلق يا حبيبي.. حلق في السماء.. توغل في الأزرق وعد إلينا.. وقذف به إلى الأعلى فاصطدم بسقف المهجع وسقط منكسراً على الأرض.. ارتعش قليلاً.. ثم توقف تماماً عن الحركة..

وعندما شاهدنا الدم يسيل من منقاره الحليبي.. طرقنا الباب، طلبنا المسؤول الصحي.. ورحنا نصرخ معاً.. إسعاف، إسعاف، إسعاف، في البدء لم يرد أحد علينا ثم سمعنا صوتاً خجولاً يسأل:

ماذا حصل عندكم.

فصرخنا: دقوا الأبواب.. دقوا الأبواب..

ولكن لماذا.. ماذا حدث..

قلنا: أنس.. أنس يموت..

لم يدقوا الأبواب.. لم يفتحوا الأبواب..

قال الغول مخاطباً طفله، وقد تهدلت أذناه بشكل ملفت:

أرجوك.. لا تمت الآن.. ليس الآن..

تقدمت منه بشجاعة وقلت له:

أخي.. يجب أن نعترف بالحقيقة.. لقد مات..

قال الغول: نعم.. مات.. أنس..

قدمت إليه التعازي فانفجر بالبكاء.. قلت له كلمتين فقط، فكانتا الدبوس الذي ثقب القارب المطاطي..

كان يعوي.. ويحشرج.. وكان يختنق.. ثم يولول..

استيقظ كل الجناح الذي كنا نعيش فيه وتتالت الأسئلة والاستفسارات.. وتتالت النداءات..

يا رابع.. يا مهجع أربعة.. يا غول.. يا شباب..

ولكن الغول وضع إصبعه على شفته.. وأمرني بالصمت ثم دفن وجهه في مخدته وراح ينشج.. ثم رفع رأسه من جديد وبدأ يعول فأصابتني العدوى وبدأت الندب..

وصلت الحكومة.. فتحوا الباب ودخلوا.. كانوا أربعة.. لماذا تبكي - سأل الرقيب الغول فقلت أنا:

مات ابنه الوحيد

ابنه؟ أين هو..؟

أشـار الغـول إلـى علبـة مـن الكبريت مغلفـة بـالورق الأبيـض وملفوفة بحبل مجدول من الخيطان..

ما هذا؟ سأل الرقيب.. فقال الغول:

هذا تابوت.. لقد غسلناه وكفناه.. ولكن قبل أن ندفنه يجب أن تراه أمه.. أليس كذلك؟.. إنها تنتظر..

لا أدري لماذا كان الأربعة يبتسمون.. ولكن الرقيب تحدث بجدية ووعد بشرفه أنه سيحضر «الماما» في الصباح.. ولكن يجب علينا الآن أن ننام، ولا نحدث ضجيجاً..

سألته: وأين ستدفنه؟ فقال الغول هنا في المهجع لا.. في ساحة التنفس.. هنا لا يجوز دفنه.. غداً نحفر له قبراً وندفنه في الساحة.. قال الرقيب بوقار ثم أردف: ناموا.. هيا.. لا أريد أن أسمع صوتاً.. مفهوم..

وأقفل الباب..

في اليوم التالي استيقظت مبكراً فلم أجد الغول.. ظننت أنه دخل المرحاض.. انتظرت أكثر من ساعة ثم ناديت: يا غول.. غول. ولكن أحداً لم يرد علي، شعرت لأول مرة منذ ثلاثة أشهر بالخوف.. سرت قشعريرة باردة في عامودي الفقري عندما سمعت أبواق الاجتماع الصباحي.. ظننت أنهم أخذوا الغول وتركوني..

اقتربت من المرحاض.. طرقت الباب.. لم يرد علي أحد، فتحت الباب ببطء لم أرَ أحداً..

يا غول.. غول.. أين أنت.. أين اختبأت.. حاولت أن أفتح باب

الحمام.. لم أستطع.. خفت كثيراً.. ثم.. تسلقت الجدار ونظرت من الأعلى..

كان السقف مليئاً بأزرار الماء..

وكان الغول معلقاً تحتها.. وعلى رأسه وكتفيه عدد لا يحصى من العصافير..

مات الغول.. هذا ليس أمراً خارقاً.. ولكنه مات في نفس اليوم الذي ولد فيه.. كان عمره خمسين عاماً..

وكان عمري خمسة وعشرين..

صيدنايا

1989

فوق الرمل - تحت الشمس

في ساحة الضوء المسيجة بأقدام العنكبوت تظهر كل يوم بقع الزيت الداكنة وتختفي، ظل ظلان.. ثلاثة.. جيش من الهياكل السوداء تدب على أرض الساحة الإسمنتية العارية.. جيش متداخل متشابك كرف من الحمام المشنوق على خصر صياد.. سرب من سمك السردين يخرج كل يوم كي يتجفف فوق الرمل.. تحت الشمس الصحراوية الكاوية..

كان الصمت الإلزامي المطبق كفيلاً بتحويل أية نأمة إلى صدى.. إلى نقيق عميق لنقطة ماء تلثغ في قعر بئر.. عواء.. عوا..ء ادمي يستجير من الإنسان بالنار.. وبينما كنا ندور في الساحة المسيجة بالرعب سألني ظلي: هل يمكن يا مثنى أن ننسى هذا الصوت؟ وعندما استفهمت كرر السؤال: هل يمكن أن ننسى هذا الصوت؟.. قلت: صوت أم سوط..؟ إن الفرق ممكن.. كان يمشي امامي مرة وإلى جانبي مرة أخرى يتخلّف عني أو يحاذيني.. يسبقني أو يرافقني ولكنه كان دائماً متصلاً بي متخفياً بجسدي من اشعة الشمس.. وعندما قارنت بيننا شعرت بهذا التطابق والانسجام بين الجسدين الأسيرين. كرة بحجم القمر مشعة من الجانبين فوق كتفين عريضتين، ومغرفتان متدليتان بثقة حتى الركبتين.. ساقان طويلتان بشكل متميز، تنتهي حدودهما تحت قدمي.. حيث تختبئ جذورهما..

«إنني أستطيع أن أستنسخ بقعة الزيت هذه عندما أريد» أطبعها فوق كل الأمكنة.. فوق العشب، وفوق التراب.. فوق الماء.. وفوق الصخر وجذوع الأشجار.. فوق الأسوار.. وفوق الجدران أيضاً.. استلّه بعد شروق الشمس وأمضى قدماً، فيسترسل متطاولاً أمامي حذراً كجنود الهندسة.. وعند الظهيرة يتكور - ككلب صغير تحت خابية الماء، أو يغفو بين ساقي المتوازيتين.. وقبل الغروب أستدرجه فيتبعني متثاقلاً بلا أعنّة أو عرى.. صلة الوصل بيننا كانت وما زالت: جسد وضوء..

«فوق كل الأمكنة؟» «وفي كل الأوقات؟» تساءلت ثم تنكرت للسؤال.. أو على الأرجح خجلت أن تسمعني العصافير.. خاصة وقد عشقت إحداهن.. وخفت إن أنا بحت بالجواب، أن ينقلوا إليها الخبر فتبكي.. وتمتنع عن نقر قضباني في الليالي وإيقاظي قبل طلوع الفجر.. تتركني وحيداً وترحل.. إلى المدينة..

«هل يمكن يا مثنى أن ننسى هذا الصوت»؟

-كرر ظلي السؤال فانتبهت، وعندما نظرت إليه لم أعرفه.. تغيّر كثيراً وانضغطت أبعاده حتى كاد رأسه أن يدخل بين كتفيه: سيقولون لها: يا عصفورة الزمان إن غصن الصفصاف لا يستطيع أن ينطبع فوق كل الأمكنة، وفي كل الأوقات.. لقد مل الضوء.. وخان ظله.. وسوف تصدق.. أقسم إنها ستصدق.. : ذات يوم ومن كثرة ما حدّقت بجسدها في ساعات التنفس تلقحت بنظراتي، وأنجبت سرباً من الزغاليل.. وبينما كانت تدرب صغارها على الطيران فوق الأسلاك والأسوار وكانت تختار وقت التنفس كي أراهم بأجنحتهم الرمادية ومناقيرهم الشمعية - سقط أحدهم في الساحة المسقوفة بالأسلاك الشائكة قبل أن يتمكن من الوصول إلى حافة السور المقابل وانقضت البواشق بأحذيتها الجلدية الطويلة، وقبعاتها الحمراء المائلة.. وكما

تعلّموا كيف يلقمون البندقية الآلية بالطلقة الأولى.. - هكذا تسابقوا لانتزاع رأس العصفور الصغير..

ظلت الأم تحوم لفترة طويلة: تقترب مني مجتازة شبك الأسلاك - ثم تبتعد.. تصرخ.. تستنجد ثم تنقض من جديد..

ظلت العصفورة تحوم تحت الشمس حتى تفحّم جناحاها..



كانت واثقة بأنه سيعود، ففي ليلة القدر بالذات قررت ألا تنام.. غير أنها سهت قليلاً وحلمت بأنها استقبلته عند البوابة الكبيرة للبيت، وقد زُيّنت بأغصان الأشجار والرياحين.. احتضنته طويلاً.. بكت على صدره.. ذبحت له أكبر ديك لديها ولم تشاهد دماً.. كانت واثقة بأنه سيعود.. وها قد مضى على غيابه سنوات.. ومنذ ليلة القدر تلك وهي تنهض كل فجر لتسخن الماء.. قطعت أغصان السرو والصنوبر والكينا.. جمعتها، وزيّنت بوابة الدار.. وها هي ذي تعد المائدة في غرفته الخشبية الصغيرة، مالئة البيت حركة وحماسة، مخاطبة نفسها بثقة: لون السيارة البيضاء سيلفت انتباه الناس.. وزمورها القوي المتقطع المرح، سيجمع كل أطفال الحارة.. سيفتح حبيب القلب باب السيارة ويصرخ: وأخيراً يا أماه.. وتضحك هي.. تضحك أم المثنى من أعماقها ويصدح صوتها مجلجلاً حتى يصل إلى آخر تلة في قرية السهوة، «يا أهل السهوة - طلع المثنى - يا أهل السهوة المثنى حي..».

«هل نسيت شيئاً.. نعم الورد.. يجب أن أضع الورود في المزهرية». المثنى يحب الورد.. وفي غرفته الصغيرة حيث نما

وترعرع، كانت تنضد الورود في مزهرية نهدية اشتراها، من أول مرتب قبضه من عرق جبينه.. وإذا تعذّر عليها الحصول على الورد - أي نوع من الورد - كانت تبكي كالأطفال وتطالب ابنتها - ضاربة قدميها بالأرض - أن تحصل على الورد مهما كلّف الأمر.. «من تحت الأرض يجب أن تحصلي عليها من تحت الأرض.. كيف سيحضر والمزهرية فارغة.. كيف سيعود.. آه.. يا ويلي لن يعود هذا اليوم.. وأنت السبب. أنت أنت.. يا ذلي.. لم تعد الأرض تنبت ورداً من أجل المثنى..».

كانت تغسل ثيابه، وشراشف السرير والستائر.. كل يوم.. وكانت تشم ثيابه.. أخذوه بثياب النوم «يا ولداه، بثياب النوم، أولاد الحرام..».

وكلما أشرفت الشمس على المغيب كلما خفّت حركة أم المثنى، وبح صوتها.. ولكنها قبل النوم كانت تردد عشرات المرات.. أكيد سيأتي غداً..

أكيد غداً سيأتي.. تغيّرت أم المثنى.. نحلت.. شاب شعرها.. غرقت عيناها.. وكان عزاؤها دائماً أنها ليست الأم الوحيدة التي فقدت وحيدها.. كان زوجها يكابر الدمع، ويفعل المستحيل لمساعدتها وتحقيق طلباتها: يستدين المال.. يجمع لها الورود وأغصان السرو والكينا.. ولا يخلص مع ذلك من لومها وتقريعها. «ما أبرد قلبك.. ابحث عنه.. اذهب وفتش الدنيا عليه..» وكان هو يهز رأسه ويبكي خلسة كلما سمحت الظروف.. وإذا ما شاهدها أهل الحي تتسلق أعمدة البوابة كانوا يتمنون لو يأتي المثنى ويخلصها «الله يثبت العقل والدين» «ولكن هل يذوب الشاب كالملح.. هكذا تنشق الأرض فجأة وتبتلع شبابها..» «لو كان حياً لعاد».. «مسكينة أم المثنى كم كانت وقورة ومحترمة» «الله يثبت العقل والدين..».

من كان يراقبها كيف تنفذ عملها.. رغم طول المدة - بصبر وثقة ومثابرة - تصيبه عدواها فيصدق بأنه حتماً سيشاهد بعد لحظات سيارة بيضاء يخرج منها المثنى بثياب النوم..

عندما علموا أخيراً أن المثنى لن يعود أبداً - أخفوا الأمر عن الأم.. ولكن قلب الأم وخزها فذهبت خلسة ولأول مرة إلى مزار الشيخ عثمان وتعهدت أمام جميع الأنبياء بأنها ستمشي بقية العمر حافية إذا عاد المثنى.. وفي نفس اليوم سقطت مريضة، وطلبت أن ينقلوها إلى الغرفة الخشبية؟؟ غرفة المثنى.. وهناك.. في النافذة الصغيرة شاهدت عشاً من القش: عصفورة جميلة محروقة الجناحين.. مدت يدها إليها متوسلة أن اقتربي أيتها العصفورة الجليلة.. أناشدك باسم هذا العش لا تنسي غداً ترتيب هذه الغرفة الصغيرة، وتزيين بوابة الدار بالأغصان.. أناشدك باسم هذه الكومة الصغيرة من القش، أن تجمعي كل يوم باقة ورد من أجل المثنى.. أناشدك باسم السماء..

كانت العصفورة حزينة أيضاً.. قفزت إلى الراحة النحيلة الممدودة وراحت تنقر بلطف أصابع أم المثنى.. ثم قفزت وطارت باتجاه الصحراء.. وقفت على السور.. اخترقت الأسلاك.. وخرمشت كل النوافذ.. زقزقت.. وتفرست أجساد آلاف الرجال، ولكنها لم تعثر على أي أثر للمثنى.. ثمة بقعة زيت فقط فوق الجدار العريض.. كرة صغيرة بحجم القمر معلقة بحبل.. ومغرفتان متدليتان بثقة حتى الركبتين.. وساقان طويلتان.. طويلتان..

تدمر

1985 / 6 / 4

المشنقة

تنشر الشمس أنابيبها البلورية، وينتعش الغبار فتكتشف للوهلة الثانية أن الفراغ ممتلئ تماماً..

مليارات مليارات الحبيبات الدقيقة تندفع بحيوية فوضوية مذهلة باتجاه الجدار المستطيل الملطّخ بألوان لا أحد يعرف كيف ومتى مزجت وتكدست فوق بعضها..

أول ما يظهر على الجدار المقابل للنوافذ دوائر ضوئية صغيرة جداً.. اكبرها بحجم الليرة الذهبية - متراصة متداخلة ومكدسة فوق بعضها ككومة من البرتقال المغسول في ساحة موحلة.. الأنابيب الشفافة التي تضخ الغبار - مغروسة دون شك في الجدار المقابل، والنفذ منه إلى مكان ما هناك..

بعضهم قال إنها رماح من الضوء تطعن الفضاء بين الحين والآخر كي لا تتعفن هذه الأحياء الدقيقة ويختنق المكان بها وهذا صحيح..

بعضهم أكد بأنها قضبان سجن.. مجرد قضبان كونية تتخلل العتمة قلدها الناس فصنعوها من الفولاذ كي تتخلل النور.. وهذا ايضاً صحيح.. صاح الأشقر النحيل:

لا.. لا إنما هي أشعة الشمس.

وأشار بأصابعه الخمسة إلى النافذة العالية المشبكة بالحديد.. استدارت الوجوه نحو الأعلى.. واختلطت الأصوات:

-أنابيب الشمس

-رماح الشمس

-قضبان الشمس

-أشعة الشمس

-أشعة الشمس..

نهض الأجعد وكان أطولهم:

-عن أي شمس تتحدثون؟ إنها الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.. الواحدة.. وهذا يعني أن شمسكم تحتاج إلى مسيرة نصف ليلة كاملة كي تصل..

قلب الأشقر شفته السفلى ودمدم:

-يتكلم كما لو أنه يملك ساعة..

-لست بحاجة إلى ساعة كي أميّز الليل من النهار.. انظر جيداً.. إنها أضواء المصابيح..

-مصابيح؟؟

-مصابيح؟؟

تعالت الأصوات

-ربما كان ضوء القمر.. قال الأشقر ساخراً.. ولكن الأجعد لم يفهم سخريته فأجاب مندهشاً:

-ضوء القمر؟؟ هذا ضوء قمر هذا..؟

-وهذه أضواء مصابيح هذه؟

-ضوء القمر يكون خافتاً يا أخ.. إنه يشبه الظل.. بينما هذه أضواء قوية ناصعة..

-كالشمس؟

-تشبه الشمس.. نعم.. ولكنها اصطناعية.. بل.. جـ.. الأدورات.. فهمت..

-طبعاً.. قنابل مضيئة.. ذرية..

-أنت لا تريد أن تفهم.. ألا ترى العتمة؟ ألا تسمع السكون..؟

-وهل ترى أنت؟ هل تسمع شيئاً؟؟ صحيح أنك أطول منا قليلاً، ولكن بينك وبين النوافذ خمسة أمتار على الأقل..

-وأنت.. أنت متأكد بأنها الشمس؟

-طبعاً.. كما أراك..

-أنت مغرور..

-تأكد بنفسك

-لست بحاجة للتأكد.. تأكد أنت..

وتعالت الأصوات

-لنتأكد

-وكيف نتأكد

-نصعد إلى النافذة

-نعم نصعد إلى النافذة

-النافذة عالية

-لا نستطيع

-بل نستطيع

-نحتاج إلى سلم

-ومن أين السلم

-نصنع سلم

-ولكن كيف

-اسمعوا.. نصعد فوق بعضنا

-هه.. فوق بعضنا

-نحتاج إلى خمسة

-سوف نقع

-لدي فكرة

-اسمعوا..

-صوت يا شباب.. اسمعوا..

-ما هي فكرتك

-يصعد اثنان على أكتاف ثلاثة..

-برافو

-ثم يتسلق الأجعد لأنه أطولنا

-ويقف على أكتاف الاثنين

-لا يكفي

-بل يكفي ويزيد

-كل واحد منا طوله شبر

-أنا غير موافق (صاح الأجعد) ابحثوا عن غيري..

-ولماذا لا توافق (سأل الأشقر)

-لأنني متأكد بأنها أضواء المصابيح

-أنا أصعد مكانه (قال الأشقر)

-أنت قصير

-لست قصيراً

-فلنجرب

-فلنجرب

-هيا يا شباب

ركع ثلاثة منهم تحت النافذة

صعد اثنان فوقهما

وبمساعدة البقية ارتفع الهرم البشري الفتي ببطء وحذر نحو النافذة المضيئة وعندما انتصب الجميع مثبتين أقدامهم على الأرض وعلى الأكتاف مستندين بأيديهم إلى الجدار.. تسلق الأشقر النحيل برشاقة فوقهم وما إن وصل إلى النافذة وتشبثت أصابعه بقضبان الحديد ووضع ذقنه على حافتها، حتى أشرق وجهه بأشعة وهّاجة وهمس بصوت بهيج مبحوح:

شمس يا شباب شمس..

ثم صمت..

-كذب

-هل صدقتم

-يقول لك شمس

-ألم أقل لكم إنه يكذب

-ولكنه يراها

-وماذا ترى أيضاً

-حدثنا.. ماذا ترى؟

-لماذا صمت

-أرأيتم

-لماذا تصمت يا أبرص

-انطق

-لقد تعبنا

-ماذا أصابه

-لماذا سكت

وبعد صمت مبهم سمعوه يحدث نفسه:

أرى الشمس.. خلف الشجرة

وأرى.. جبلاً.. وحماراً.. يسرح حول الطا.. حونة..

ثم صمت إلى الأبد.. فارتبكوا تحته.. مالوا يميناً ويساراً.. وأخيراً سقطوا فوق بعضهم كالحجارة..

بينما بقيت العيون شاخصة تنظر إلى الأعلى.. إلى الوجه المشرق.. وبقيت الأفواه مفتوحة من الدهشة والخوف..

بقي الأشقر النحيل متشبثاً بحديد النافذة وبقي ضوء الشمس يلمع من وجهه الأنمش حاولوا أن يساعدوه ولكنهم فشلوا..

تحدثوا معه فلم يرد عليهم.. حاولوا أن يصعدوا ثانية إليه.. لم يستطيعوا..

طلبوا منه أن يقفز

شدوا بطانية من زواياها وقالوا له: اقفز لا تخف / لم يكن يسمعهم..

لم يكن بينهم..

تكلبت أصابعه على القضبان البلورية.. وفجأة.. سمعوا نهيق الحمار.. نفس الحمار؟ لا أحد يعلم..

كانت الساعة السابعة..

ومنذ ذلك التاريخ وحتى الآن يتردد صوت الحمار في السابعة صباحاً من كل يوم..

بقي الأشقر النحيل جداً متشبثاً بالقضبان

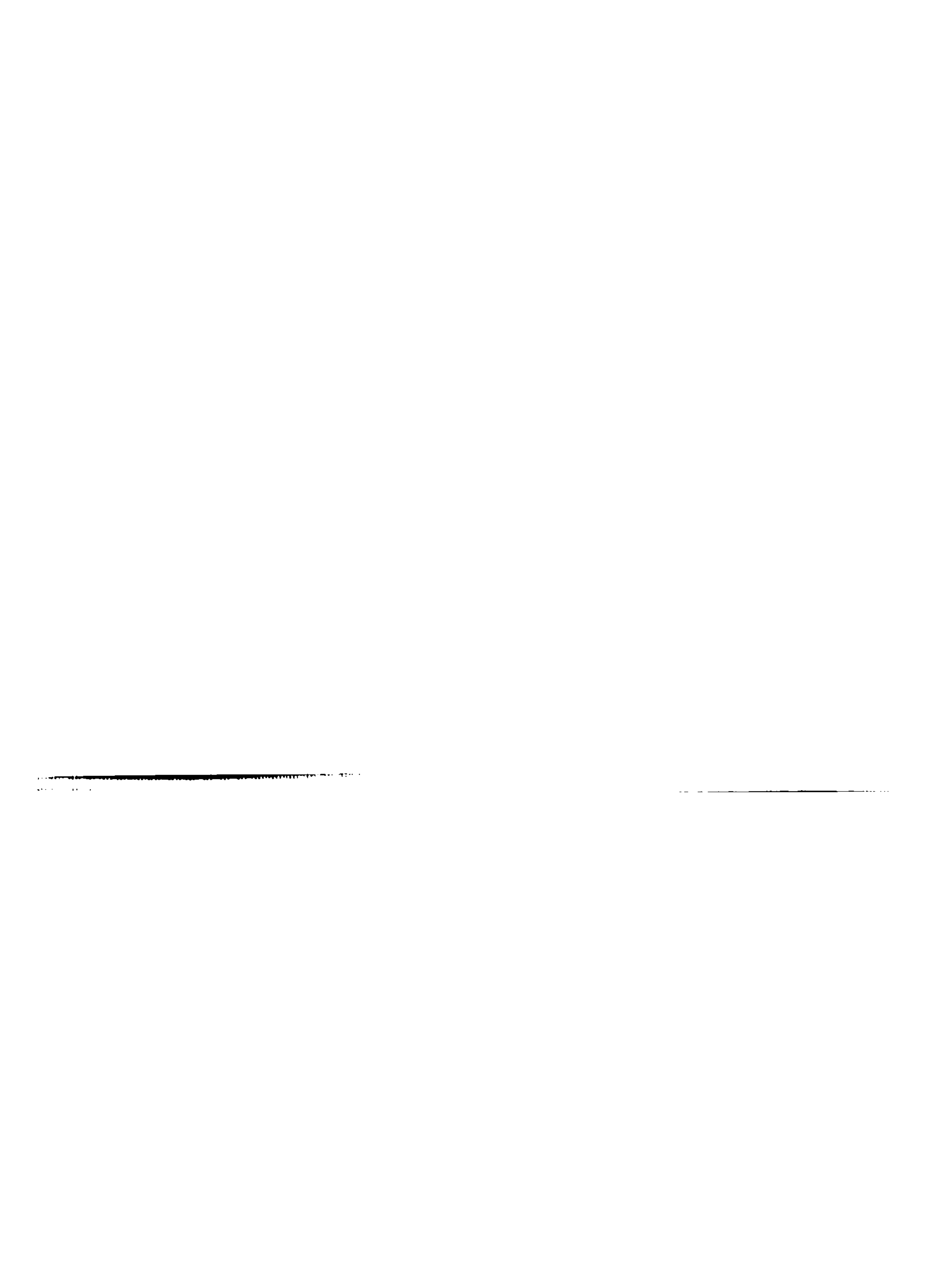
ذقنه على حافة النافذة وجسده يسيل فوق الجدار؟؟

مثل دمعة ممزوجة بالكحل كان يسيل

حتى سقطت من أصابع قدميه آخر خلية من خلايا الحياة..

صيدنايا

1989



الإطار الأسود

كنا في الغرفة اثنين.. رجل وامرأة وطفل

شاب أجنبي وشابة أجنبية.. وطفل

نعم.. كنا اثنين فقط..

وكان الضوء يحجب عينيه بطرف ردائه.. وكانت الموسيقى حلماً يختبئ خلف ستارة رقيقة من الهدوء.. وحسب عادات الطلاب فرشنا فوق الطاولة الصغيرة جريدة كبيرة.. وحسب عادات الطلاب طوت الشابة زوائد الجريدة.. رتبت فوق الطاولة بضع صحون وكأسين كبيرتين وعدداً لا يحصى من أزهار المنثور البيضاء..

أخرجت زجاجة مقيّدة الفم بقفل من الأسلاك وناولته إياها / شمبانيا طويلة العنق كبيرة الرأس خضراء.. وضع راحة كفه على التاج المسيّج بالأسلاك وأخذ يفك القيد على مهل وهو ينظر في عيني المرأة التي كانت تراقبه.. انفجار طفيف ويرتطم التاج في سقف الغرفة المرتفع.. وتتقيأ الزجاجة الخضراء زبداً أبيض راح يفور من بين أصابعه على صدره ويتجمّع بين فخذيه.. خطفت الزجاجة منه ودستها في كأسها حتى امتلأت.. ثم أمرته أن ينزع ثيابه.. قهقهت بصخب عندما اكتشفت أن السائل البارد الفوار قد بلل أعضاءه التناسلية.. خلع ثيابه..

إياك أن يسكر.. إياك.. تعال نصب عليه الماء.. أمسكت

بمنشفة صغيرة وراحت تجففه.. بحنان.. كان يرتجف من الداخل.. ومن الخارج كان يبدو متجمداً كالنهر..

ألبسته عباءة حمراء قطنية كانت قد أهدته إياها.. كان قلبه يرقص.. وأحشاؤه تنتفض..

وكانت هي تضحك.. تضحك.. ولا تكف عن الكلام.. ثم:

يكفي أنني في هذه الحياة قد تعرفت عليك.. ليس مهماً كيف سأعيش بعدك..

أين سأعيش..

مع من..

ليس مهماً..

فقد عشت حتى الموت..

امتلكتك سبعة أشهر.. 215 نهاراً وليلة..

أنا التي كان يكفيني أن أعيش معك أسبوعاً.. يوماً واحداً.. كم أنا سعيدة.. طوقته من الخلف.. قبلت شعره.. ثم ابتعدت فجأة وأجهشت.. احتواها بذراعيه.. قبل عينيها.. ولكنها نهضت.. ابتعدت عنه.. دارت في أرض الغرفة الواسعة وراحت تركل الهواء بقدميها وتصرخ: لن أبكي..

ليذهب الحزن إلى الشيطان..

ليخرج البكاء من هذا المكان إلى الأبد..

ليخرج من شقوق الباب إلى البحر..

لتقذف الدموع بنفسها من النافذة..

ابتسمت.. هجمت عليه.. ضمته بهياج وهمست في أذنه وهي
النشيج:

أنا.. سعيدة.. سعيدة.. فهمت.. سعيــ.. دة.. لا أريد أن أودّعك
بالدموع.. ولماذا الدموع.

تعال.. تعال نشرب نخب انتصارنا.. ولننس ما حصل..

كانت تعذبه.. لم ينطق تلك الليلة ولا كلمة واحدة..

سلاسل فضية باردة كانت تشدّ على حنجرته..

فوجئ بنفسه.. فاجأته المرأة بجرحها..

كان يظنها مجرد امرأة.. لم يكن يرَ هذا النبع من المشاعر
الرهيفة المتدفقة.. كان نبعاً مباغتاً.. وبدأ يلمس العشب الذي ينمو
حول سريره الأبيض وحول إطار النافذة.. وبين شفتيه المضمومتين..
كان مشدوهاً..

هل يعقل أن تحب هذه المرأة رجلاً.. مثلي.. كل هذا الحب..
هل يعقل أن يحوي هذا الجسد الصغير النحيل الناعم كل هذا الفيض
النازف من العواطف والحنان؟

كانت تراقبه.. ولكن الحزن - حزنها منعها على أية حال - من
إدراك حقيقة مشاعره..

لم ينطق تلك الليلة..

لم يفعل شيئاً سوى الضم والاندهاش والتستر خلف ستارة
سوداء من الأسف والحداد..

وأحضرت شمعتين وقالت:

هذه الشمعة الصفراء.. أنا

رومانسية؟ ليكن..

وهذه الشمعة البيضاء.. أنت.. أيها العزيز.. فهمت..

أنت..

لفّته بمنديل وخبأته في محفظتها..

أطفأت الضوء الخافت.. أوقدت شمعتها..

ثم جلست تراقبه وتراقبها..

لم يشربا كثيراً.. لم يسكرا كثيراً..

ولكنه وجد نفسه مندفعاً لاقتلاع الشمعة الصفراء من مكانها فاقتلعها.. وبكل براءة وحياد قربها بهدوء من زاوية الجريدة المفروشة على الطاولة فالتهبت. سار اللهب رويداً رويداً على حافة الطاولة وكل منهما يراقبه بحياد كما يراقب السُّمار النار.. وعندما وصل اللهب إلى يدها.. رفعت يدها باستسلام عن حافة الطاولة وسمحت للحريق أن يمر ويتابع طريقه حتى نقطة البدء.. توقفت أهدابها عن الرفيف.. اصفرت.. تسمرت عيناها على هذا الإطار الأسود الذي خلفته النار.. إطار أسود..؟

نظرت إليه بحقد عجيب وصرخت في وجهه: ماذا فعلت؟

نهضت.. أنهضته من مكانه عن الكرسي.. وضعت وجهه في وجهها وانفجرت:

ولكن ماذا فعلت.. ماذا فعلت؟

صفعته بقوة.. مرة.. مرتين..

غطت وجهها بيديها.. وتحطمت فوق السرير الأبيض:

ولكن لماذا يا إلهي.. لماذا فعلت ذلك..

لماذا.. لماذا..؟

خلع الرجل عباءته الحمراء وغطى بها ظهر الكرسي.. توجه نحو المرآة ووضع شفتيه على بطنها المنتفخ قليلاً..

ثم بكى..

صيدنايا

20 / 4 / 1988

مذكرات برميل

أنا - كما هو معلوم - بلا أطراف بلا يدين ورجلين وحتى راس..

لقد ارتكب جدنا الأول - وكان له أطراف حقيقية - معصية كبرى، لم نعد نتذكرها كلها، ولكن يقال إنه كان له بطن عظيمة خبأ فيها «ديوجين الأعمى» وراح يتجول به.. والتجول ممنوع بأمر.. فحكمت عليه السلطات بقطع جميع أطرافه، وحبسه في الزاوية إلى الأبد.. لم يكن الراس مطلوباً ولكن جدي الأول خبأ رأسه بين كتفيه عندما ارتفعت البلطة في الهواء ومن شدة الخوف بقي رأسه غارقاً بين كتفيه، وبقي مركوناً في الزاوية حتى يومنا هذا.. وإلى الأبد..

لقد تزوجت «برميلة» رائعة الجمال.. أقصر مني قليلاً وأنحف.. وأنجبنا ثلاثة صغار أكبرهم عمره الآن سبعة ليترات..

كنت إنساناً ثم تحولت إلى برميل ثم «ثلاث نقاط».. عفواً لم أكن إنساناً تماماً ولم أتحول إلى برميل حقيقي، لكنني «ثلاث نقاط».. سيكون لهذه الـ«نقاط» تأثير حاسم في تاريخ حياتي، وسأظل أحترمها - أقصد النقاط - طالما أنها موجودة ليس على السطر في نسق واحد، ولا مبعثرة فوق الأحرف.. وإنما هكذا نقطة نقطة حتى امتلئ ونقطة بعد نقطة حتى أصبح فارغاً تماماً..

-لقد ألقينا القبض على الرجل وعلى البرميل.

الاسم: «ثلاث نقاط».

الكنية: «ثلاث نقاط».

التهمة: «ثلاث نقاط».

وضعوا الرجل في زنزانة وأقفلوا عليه.. جلدوه، عصبوا عينيه وجلدوه.. لم يتفوه بآه واحدة.. أما أنا فقد تركوني في القبو وحيداً.. وكم كنت أتشوق لضربة سوط، لركلة قدم، أو لكمة.. أما عصب العينين فلم يخطر على بالي أبداً..

البرميل هل يتكلم؟ هل يفهم.. يمسك بالقلم ويكتب..؟ ومن قال بأنني أنا الذي يتكلم ويكتب..؟ إن ما أعترف به الآن ما هو إلا صدى لركلاتهم على بطني وخواصري.. لنعرات أصابعهم في نافوخي الذي أصبح اسمه «غطاء» لست أنا من يتكلم لا، وإنما هم..

لقد كنت برميلاً وتأنسنت «ثلاث نقاط» كيف جئت إلى هنا..؟ كيف أصبحت معتقلاً سياسياً؟ لا أعلم بعد. اشتراني أحدهم ووضع في بطني عوضاً عن الماء، كتباً؟ اعتقلوني واعتقلوه؟ هذا تفسير ممكن.

برميل.. ليكن برميل.. ولكن ماذا يمكن أن تسميني الآن وأنا محجوز مثلك؟ «برميل سياسي»؟ أم «معتقل سياسي»؟ أم مجرد برميل في السجن «ثلاث نقاط» أنا لا تهمني التسميات كثيراً.. أنا اسمي برميل؟ حسناً.. شكلي برميلي ومضموني الفراغ «التجوف».. وأنا فخور باسمي لأنه واقعي.. ولكنهم اختلفوا.. بعضهم قال «...» وبعضهم قال «...» وبعضهم أشار إلى أنني لا اصلي. طبعاً هه.. كيف أصلي؟! دحرجة..؟ كيف أرفع يدي إلى أذني وأنا بلا يدين وأذنين؟ كيف أركع وأسجد وأنا مثل جدي الأول بلا أطراف ورأس؟ أنا مليء بالماء.. بالماء.. ويجب علي أن أحافظ على مائي.. على هوائي وفراغي

المقدس.. هذه مسألة مبدئية.. لست محافظاً لا.. أنا برميل منتفخ جداً ولكن ليس إلى هذه الدرجة..

ولم أنج من الغمز واللمز والمهاترات. ولم أفهم بالتحديد ماذا كانوا يقصدون بكلمتي منبطح و«مخبر» ولم أكن قادراً على الشرح.. أحد الأذكياء نظر إلي بخبث وقال: يا ملعون، أنا واثق أنك لست برميلاً.. هذا اسمك الحركي.. أليس كذلك؟

-ومن قال لك يا ذكي إنني برميل.. لقد كان لي حراس ومرافقة من بغداد إلى دمشق ومن عمان إلى القاهرة ومن الرياض إلى الرباط ومن طرابلس إلى الخليج.. والآن أيضاً مثلك.. لا يفارقني الحراس.. المهم، أنا دخلت إلى هذا المعتقل وأعرف جريمتي.. كان بطني مليئاً بالبارود «ثلاث نقاط».

وضعوني - كالعادة - في الزاوية وحيداً، فابتهجت.. كنت أرغب في ذلك ثم بدأت بالتدريج أتعرف عليهم: من أياديهم من أصواتهم من وقع أقدامهم على البلاط. بعد أيام غسلوني بالفرشاة والصابون، وملأوني بالماء النظيف. وضعوا في بطني علبة بلاستيكية صغيرة - لم أفهم لماذا - أفرغوني من الماء.. ملأوني بالماء.. استغربت. لماذا يفعلون ذلك؟ كنت أتساءل وأبقبق.. ثم وضعوا لي صنبوراً في أسفل بطني.. كم كنت أشعر بالخجل من هذا الصنبور الأصفر وخاصة عندما يعبثون به «ثلاث نقاط» وكنت أشعر بلذة غريبة عندما يفتحونه وأكون ممتلئاً بالماء..

بقيت فترة طويلة مراقباً وشاهداً - ولن أبوح بكل ما رأيته - كي لا يقولوا إنني «منبطح» أنا أخاف كثيراً من هذه الكلمة. برميل ومنبطح؟ رأيت كل شيء وعرفت كل شيء - ما عدا ذلك الذي يحدث في الليل - لأن العسكري، وهو رجل مثلهم، ولكن رجليه ولا أعرف لماذا

– كانتا طويلتين جداً – كان يدخلهم كل مساء إلى غرف متشابهة – تميزها بواسطة الأرقام – وبمفتاحه الكبير يقفل عليهم الأبواب ويخرج.. وأحياناً كان يتوقف عندي، يفتح غطائي.. ينظر إلى أعماقي ويركلني بجزمته السوداء، ثم يقفل الباب الخارجي بالقفل والجنزير ويمضي.. وأحياناً كان يلتصق بالجدار كما لو أنه يختبئ – ويبقى لفترة طويلة.. وحتى الآن وبعدما أصبحت بشرياً تقريباً.. لم أفهم لماذا كان يفعل ذلك..

أتسلق.. أطل من النافذة. النافذة على الشرق.. أرى كوكباً يتوهج داخل أشجار الكونسرتينا، التي تنبت بكثرة في الأراضي المحيطة بنا.. ما هذا، أصرخ: تعالوا انظروا.. ويتجمعون.. كانوا أحياناً يسمعون من برميل ويطيعون.. / هذا القمر / لا هذا «ديوجين» / القمر يا عمي / ديوجين يا عمي / انظر إلى المصباح في يده.. يختلفون.. يتفقون.. ثم: هذا القمر.. القمر؟ وأعاند.. ديوجين؟ ويحاولون إقناعي.. أمن أجل هذا اخترع «كليدين» الأسلاك الشائكة؟ الظلام يحجب غابة الشوك.

وكرة النار المقصوصة بإتقان.

تعدي الأسلاك ببريقها

تجعلها شفافة وجميلة..

ونحن لسنا مجموعة براميل.. أنا فقط البرميل الوحيد بينهم «ثلاث نقاط» أما البقية فهم أصدقاء – بشر حقيقيون.. يحزنون ويفرحون مثلي.. ومثلي أيضاً يبكون ربما، وربما ليس من صنابيرهم، وإنما من عيونهم – فللبشر وجوه.. في الوجوه عيون صممت خصيصاً من أجل البكاء..

إنهم ليسوا مثلنا – نحن البراميل – لا وجه ولا قفا..

بعد قليل ينشق القمر إلى نصفين.. يطل علينا من النافذة بدراً كاملاً.. يقف القضيب الحديدي في طريق وجهه.. «أهلين وسهلين تعال..» تعال.. أدخل.. لا.. دعوه يذهب.. إذا دخل لن يستطيع الخروج.. وراح أحدهم ينشّه كي يبتعد عن النافذة.

لطمت نفسي بالباب عدة مرات وقلت: العمى.. ما هذا.. تبقى عمراً، اعماراً تحلم أن تلمس القمر.. أن تراه عن قرب وعندما يأتي بنفسه إليك تطرده كالزنبور؟؟

لا تؤاخذني يا قمر - أنا البرميل المحشو: إما بالماء أو بالهواء أو «ثلاث نقاط».. ظننتك ثقباً في الجدار.. العتب ليس على النظر فقط.. البعد يقسي القلوب.. لا تبتسم.. منظرك أصبح مضحكاً مثل حز البطيخ الأصفر.. مثل شفتين ساخرتين في قناع.. لا.. لا تغضب. ما عدت أذكرك لأنني نسيتك.. أنت موجود في كل مكان؟؟ أينما التفت أستطيع أن أراك؟؟ حتى الموتى يتعرفون عليك؟؟

يا لصديقي المغرور.. صديقي؟

منذ أيام كنا نسمع أغنية «تجي نقسم القمر» التفت إلى الآخرين وسألتهم: «شو يعني قمر» لم يستطع إلا واحد منهم أن يعرف ماذا تعني كلمة قمر.. كان يدرس في الخارج - فتح القاموس وقال: نوع من أنواع السندويش.. مثل الهمبرغر يعني.. أنا برميل.. برميل ماء طافح.. رائع.. أنا قصداً أردت ذلك. عندما يحل الظلام سأفتح غطائي كي ينزل ويتسبح القمر فيّ.. ولكن المصيبة أن الإنسان لا يستطيع حتى أن يصبح برميلاً مليئاً بالماء عندما يريد.. يجب أن يكون لديه برنامج سياسي واضح ومقنع.. أصلاً سمّوني بهذا الاسم ظلماً. ما ذنبي يعني إذا كنت مبروماً كالبرميل..؟ أكل وراحة وشهيتي أعوذ بالله.. أحب الأكل يا أخي.. ضعيف أنا أمام البطاطا المسلوقة،

والعدس المسلوق، والبرغل المسلوق.. غداً عندما يتمشى الأصدقاء في الممر خلف بعضهم.. مثل قناني الكازوز في المعمل - سأضع إصبعي أمام عنق أولهم فينبطحون جميعاً ها ها ها، إصبعي؟ ولكن لا إصبع لي.. أملك من الزوائد هذا الدسنبور فقط.. ها ها ها.. صنبور أصفر.. سينبطحون محدثين ضجة كبيرة - وسوف يصرخ الشاويش العام: قيـ.. لو.. له.. خرقت القيلولة يا.. برميل.. وعندها سأضع الغطاء علي وأصبح برميلاً بالفعل../

زعلت كثيراً لأنني أغضبت الشاويش العام وتحولت فجأة - من كلمة واحدة - إلى برميل حقيقي..

وهنا - يفترض أن تنتهي قصتي لأن البرميل لا يتكلم.. لا يفهم.. ولا يستطيع أن يمسك القلم ويكتب «ثلاث نقاط» ولكن ما جرى لي بعد ذلك ينطق الحجر.. ثم، من قال بأنني أنا الذي يتكلم ويكتب..؟ أنا صدى لركلاتهم..

وبدأت أضمر بجدية ونشاط حتى تحولت من برميل مهيب إلى سطل صغير.. أكثر من أحد سألني عن السبب: عامل ريجيم؟ مضرب عن الطعام؟ قلل من الرياضة يا برميل.. ارحم نفسك. ولكن الحقيقة هي أنني افتقدت إلى الماء.. لا أحد ينضح أو يملأ.. أصبحت فارغاً.. ولم يعد للصنبور من مبرر.. قلت: لماذا أعرض نفسي للسخرية المجانية.. برميل فارغ.. سأسيء للمجتمع الذي أنتمي إليه.. وأنا لا أستطيع أن أتحمل سماجة أولئك الذين يطبطبون على بطنك أو ظهرك محدثين ذلك الصوت الشامت - طبعاً كالطبل - وما هو الصوت الذي يمكن أن يصدر عن برميل فارغ..؟

قررت.. وبدأت أضمحل.. وعندما أصبحت سطلاً قلت يكفي يا ولد - لم أنس أن سلوكي تكتيكي.. وأنني قد أكون مفيداً لأحد ما..

ويبقى هذا أفضل من التلاشي.. وكم كنت سعيداً لأنني تحولت إلى سطل في الوقت المناسب تماماً كان هذا أكبر دليل على بعد نظري وفهمي للتطور التاريخي - فعندما شحت المياه حولوا كل البراميل إلى جمع الزبالة.. الله ستر..

استخدموني من أجل نقل المياه. استخدموني للغسيل.. وكان الصابون يدخل في حلقي وأذني وعيني.. وصبرت. قلبوني على وجهي.. جلسوا علي.. وقف صغار القامة على ظهري كي تراهم الأشجار والجبال من خلال النافذة.. صبرت.. وقلت «إذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر..» ولكن أحدهم فكر أخيراً أن يضعني في المرحاض - فكرة جهنمية - شيء لا يطاق.. ليست الروائح هي المشكلة ولكن المناظر.. قاومت.. يدخلونني فأغافلهم وأخرج.. كيف؟ هم لا يعرفون وأنا لا أفهم: من أخرج السطل؟ هذا مكانه في المرحاض يا رفاق.. رجاء يا شباب انتبهوا.. أقبع في الزوايا.. أخرج إلى الممر أدور بين المهاجع ولا تسمع إلا: أين السطل الأزرق؟ أين السطل الأزرق..؟ سطل المرحاض من وضع سطل المرحاض هنا؟ من رأى سطل المرحاض.. وكما لو كنت سخلة ضائعة يستمرون في البحث علي ويعيدوني إلى بيت الطاعة في المرحاض.. ودائماً تجد من يأخذني بين يديه من هذا المكان إلى آخر.. وأكثر ما كان يغضبني أنهم يأنفونني ويشمئزون مني.. يرفضون غسل وجوههم من مائي.. يرفضون غسل الخضرة فيّ.. يجتمعون.. يقررون: السطل الأزرق من أجل غسل الثياب فقط.. ثم فكروا أن يضعوني في المرحاض ويرتاحوا.. ولكن هل ارتاحوا وريحوا..

تسللت ذات يوم عبر المهجع وخرجت إلى الممر.. لا تسألوني كيف كنت أفعل ذلك فهذا سر من أسراري.. لا أحد يعرف غيري كيف أخرج وكيف أعود.. متى أكون في هذا المكان أو ذاك.. متى أكون ممتلئاً بالماء

النظيف.. متى أكون ممتلئاً بالماء الملوث.. ومتى أكون فارغاً.. المهم ركضت إلى إحدى الزوايا وجلست هناك «أدخن سيجارة» لم تكن رائحتي بشعة إلى تلك الدرجة.. كنت أعتقد أن لمسي ممنوع ولكن التعامل معي كان متناقضاً لدرجة لم أعد أفهم هل أنا منبوذ مقرف أم مرغوب ومهم.. الجميع يتحدثون عني يذكرون اسمي ولقبي ويتلألأ الفرح في عيونهم عندما تقع علي.. والجميع يتأففون مني ويغسلون أيديهم، ثلاث مرات - بعد لمسي.. ولكن والله والله لو أردت الشر.. لو تحركت فقط من مكاني - ولو قليلاً - لجعلتهم يهربون من المرحاض وألبستهم بين ركبهم.. كنت غارقاً في أفكاري عندما اقترب أحدهم مني مسرعاً ومد يديه السمينتين واختطفني من مكاني - كما لو أنه في سباق - كنت أعتقد أنه سيجلس علي فقط ولكنه حملني مسافة وقلبني على قفاي تحت النافذة وصعد علي.. كم كان ثقيلاً أي أي أي.. قاومت قدر ما استطعت ولكن شيئاً ما في خاصرتي طق فجأة.. لا أدري هل كان عامودي الفقري أم مجرد ضلع من أضلاعي الصامدة.. أم كانت مرارتي هي التي فقعت.. واعتقدت بأن الأخ السمين سينزل عني فوراً ويسأل على الأقل عن صحتي ولكنه لم يفعل.. شعرت بالدوار.. ترنحت.. ثم تقصفت تحته وأغمي.. علي.. أفقت من غيبوبتي بعد فترة طويلة على ما يبدو. كان الجو معتماً وتبين لي - ولحسن حظي.. أنهم نسوني في الممر كما يحصل أحياناً.. جميع الأبواب مقفلة وأنا وحيد مقلوب على جنبي والهواء يدخل فيّ ويخرج.. شعرت بآلام مبرحة.. حاولت أن أجلس لم أستطع.. حاولت أن أفهم ماذا أصابني بالتحديد. تلمست نفسي فوجدت أنني مصاب بجرح قاتل في بطني.. من الأعلى إلى الأسفل. وكانت دمائي قد نزفت حتى آخر نقطة - كنت ناشفاً تماماً.. تألمت كثيراً لحالي وشعرت بالغبن ولكنني فرحت أيضاً فمن الآن وصاعداً لن يضعوني في المرحاض على الأقل وفي اليوم التالي - وبينما

كانت الأبواب تفتح مفرقعة الواحد بعد الآخر - سمعت صوتاً غريباً يسأل لمن هذا السطل؟ ثم شعرت على الأثر بركلة مفاجئة قوية على خاصرتي المشقوقة.. طرت في الهواء منحرفاً. اصطدمت بالجدار وسقطت على وجهي.. ومرة أخرى سمعت - أو تراءى لي - خطوات ثقيلة تقترب نحوي.. انكمشت.. واستطعت بالكاد أن أختلس النظر من تحت وجهي المطبوب على البلاط: بوط عسكري ضخم - بحجمي تقريباً - يقترب.. يا للهول.. وتجمعت على نفسي.. وتهيأت لتلقي الضربة القاضية.. وسمعت العسكري يسأل: هل أنتم بحاجة إليه؟.. طلعوه مع الزبالة.. ولكن أحدهم رفعني بين يديه كطفل وقال: أنا بحاجة إليه.. ثم حملني بإصبعه من شفتي وأدخلني إلى المهجع..

وضعني بين فخذيه.. كنت أتألم وأئن.. ظننت بأنه سيداوي جروحي ويجبر عظامي التي طقت.. ولكن سكيناً حادة التمعت.. ثم دخل النصل مباشرة في جرحي الكبير وراح يقص ويقطع حتى تحولت إلى شقف صغيرة.. اعتقدت بأنني مت.. وحمدت ربي على هذه النهاية.. ولكن بعد مرور وقت قصير شعرت بحرارة هائلة.. وصحوت على نار قذرة.. وشممت رائحة كريهة تشبه رائحة الجلد المحروق.. وحاولت ان أتحرك أن أصرخ أن أفتح عيني أن أحرك شفتي ولكن جسدي أصبح رخواً.. مائعاً.. ماذا حصل لي؟ هل هذا هو الموت أخيراً..؟ لا يبدو ذلك.. فقد أصبحت مائعاً جداً كالزيت.. وبدأت أطرافي تنقط.. كنت أذوب.. نعم.. أذوب.. وكان هذا آخر ما تذكرته.. «ثلاث نقاط». ●

صيدنايا

20 / 8 / 1991

القبلة

فهو صغير بحجم جسدين

فهو بلا طاولة ولا كرسي ولا خزانة

فهو عار كالخندق

أبيض أبيض كقطعة الخام المؤسسة حديثاً، المشدودة على إطار.. كان القبو أبيض.. كان عارياً.. كان وحشياً.. ثم تأنسن..

في القبو نافذة وحيدة مستطيلة بطول الجدار.. تطل على الرصيف مباشرة.. تستطيع من خلالها أن ترى سيقان المارة.. لون جواربهم.. وتستطيع أحذية المارة أن تراك.. تحت النافذة فراش في الزاوية.. وفي الزاوية المقابلة سيبة بين أرجلها الثلاثة سطل كبير فيه خشبة ما.. وعلب متنوعة الألوان والأحجام.. وفراشي من كل المقاييس، مغموسة في زجاجة غليظة مغلفة بقطعة قماش. وفي الزاوية الثالثة - قرب الباب - لوحات تبدو أنها تدير ظهورها عن القصد وتتكئ بكسل على الجدار..

«الجدران مطلية بالكلس الأبيض»

«الجدران كانت مطلية بالكلس الأبيض»

كانت.. لأنها الآن بلون آخر.. بين ليلة وليلة تغيّرت.. لم تعد جدراناً.. تحولت إلى شيء آخر..

منذ شهور فقط طلاها بالأبيض.. ومنذ ليلة أصبحت مغارة..

-الكلس / ليس هناك ما يوازي الكلس في نقائه.. هكذا قال:

كانت الجدران متسخة لا لون لها / الوسخ ليس لوناً.. / الوسخ بقع لها شكل.. أشكال/.. أمسك بالفرشاة الكبيرة وطلاها بالكلس. كانت البقع مسلية تتخذ أشكالاً وتسليه، ثم بدأت تعذبه.. أصبحت وسخاً.. بلادة.. فقدت القدرة على التشكّل.. على العطاء.. صارت تكرر نفسها معه.. أمسك بالفرشاة الكبيرة وأعدمها. قبرها وهي حية تحت الكلس..

-ليس هناك ما يوازي الكلس في بياضه.. وبعد شهر

-الأبيض ليس لوناً.. الأبيض زبالة..

وأنت.. أنت، لا تضيق ببقع الوسخ ولا بالبياض.. أنت تضيق بالجدران.. بهذه الجدران الأربعة.. الخمسة.. لماذا لا تخرج؟ لماذا تتربّع في هذا النفق كنقطة ماء..؟

وكان يبتسم بسخرية.. يغضب بسخرية.. يقضم أظافره ويبتسم وهو ينظر ليس إليك وإنما إلى كل الأماكن.. ثم يبصق.. وكنت أجهل سبب كل هذه السخرية في عينيه.. في أصابعه في شعره في كلامه.. مغرور.. كنت أقول في نفسي أو.. غريب الأطوار..

-أخرج إلى الشوارع.. إلى البيوت.. إلى الطبيعة.

-في الشوارع أيضاً جدران.. كل الأرصفة محاطة بالجدران.. كل البيوت السهول.. الجدران في كل مكان.. الشجرة ماذا؟ جدار.. الصخرة جدار الجبل جدار المرأة جدار الليل البحر السماء.. كلها جدران.. إلى أين؟ في الداخل جدران في الخارج جدران.. ثم يبكي.

ظننت يومها بأنه سكران.. ولكنني عندما سكرت تلك الليلة - لوحدي.. وفي ساعة متأخرة من الليل - اكتشفت بأنه كان يتعذب..

كان على حق.. وعندما زرته في اليوم التالي لم أجده. كان الباب مقفلاً. وكانت النافذة سوداء.

لم أر وجهه بعد ذلك أبداً.. رأيت جدران قبوه.. جدران قبره.. جدران روحه.. فلسفته.. ولم أره.. اختفى.. أصبح خرافة..

في نفس الليلة نطت الفرشاة الكبيرة من سطلها.. انغمست في خياله الأسود وبدأت تمشط الكلس..

ظل يعمل – كما قالوا – حتى الصباح.. وكانت النتيجة أن القبو الأبيض تحول إلى مغارة. وفي المغارة عظام: جماجم وأطراف بشرية.. هياكل عظمية هي الوحيدة البيضاء في هذه الهاوية السوداء.

هيكلان عظميان يجلسان على طاولة هي بدورها هيكل عظمي.. يشربان النبيذ بجمجمتين صغيرتين وخلفهما البحر.. بحر أسود.. الشاطئ أسود.. السماء سوداء.. والغيوم التي في السماء سوداء..

هيكلان عظميان يلعبان الشطرنج بهياكل عظمية صغيرة.. نافذة من عظام الساق / مغلقة بقضبان من الأصابع / على السطح هيكل عظمي لطفل في بطن أمه رأسه جمجمة أكبر من جسده يلتفّ على نفسه كمن يريد أن يقبل اليتيه.. حبل سرته يتلاشى في السواد وفوقه يحلق هيكل عظمي آخر مثله ولكن له جناحان.. الجناحان أيضاً من عظم تحيط بهما هالة سوداء..

فوق الباب.. فوق الباب فقط ترك مربعاً أبيض فيه حمامة سوداء ترقد في عش يشبه القفص الصدري ومن تحت جناحيها تطل الثعابين..

اختفى..

أصبح خرافة

عندما سمع صوت بابوجها يقرع الدرج.. ترك الفرشاة واستلقى على فراشه تحت النافذة!.. كانت ترتدي نفس الفستان المنزلي القصير المورّد.. وتسند بوركها - نفس السلة - سلة الغسيل الحمراء.. وفي نفس المكان المكشوف على صحن الدرج - حيث يصبح فخذاها الأبيضان في متناول الأسنان - كما كان يحب أن يقول - تباطأت لم تنظر إلى الأسفل بطرف عينها. وإنما بعجيزتها نظرت إليه.. وضعت السلة على صحن الدرج «تفقدت غسيلها.. ناست بإليتها كاشفة عن ذلك المثلث الزهري الناعم.. اختلست نظرة من بين ركبتيها إلى هناك.. كانت تعلم أن الجار يركع الآن على ركبتيه.. وأن خصيتيه ترتجفان.. تباطأت.. أعطته ما يكفي من الوقت كي يحترق.. ثم حملت سلتها.. سندتها بوركها الآخر وتابعت صعودها الحلزوني المياس.. ميادة كان اسمها، صبية ممتلئة كجرة الخزف.. وكان هو الخزّاف.

كثيرة هي الأخطار.. مسدس عيار 9 مم. موسى كباس.. وحتى بندقية قناص.. ولكن عقله كان قد صعد على الدرج..

كيف وصل إلى السطح.. سطح البناية التي يقيم في كعب حذائها؟

كيف عبر فوق السقالة الموجودة أصلاً لإصلاح المنور؟

كيف قفز إلى الطابق الخامس وتسلّق الدرج إلى سطح بنايتها..؟

هو نفسه لا يعرف

وجد نفسه فجأة أمام البوابة الحديدية. ولم يعد بإمكانه أن يتراجع.. فتحها قليلاً ومن خلال شقها نظر.. كان متأكداً أنها وحيدة مع بياضاتها الرطبة الناصعة كالكلس.. ملأت أنفه رائحة الصابون

والليلة الزرقاء.. فتح البوابة واندفع. فاجأته الشمس المنعكسة بحرية على تلك المساحة الواسعة من.. السواد.. كل شيء أصبح أسود.. حاول أن يفتح عينيه.. أن يوسع حدقتيه.. سمع صوتاً هامساً يصطدم به.. افرك عينيك.. افركهما.. ولكنه هو الذي نسي كيف يفرك عينيه.. نفر نحو الأمام كديك مقطوع الرأس.. اصطدم بقطعة قماش منشورة للتو.. نفذت الرطوبة إلى جمجمته كالغاز.. صرخ صرخة بهيمة وسقط على ركبتيه ثم جنح وتكوّر مختلجاً تحت قطعة القماش البيضاء.. بينما كانت قطرات الماء السوداء تتجمّع عند حافتها وتسقط على وجهه قطرة قطرة..

اختفى..

أصبح خرافة

ولذلك قالوا أيضاً إنه رآها..

كانت تعصر شرشفاً مجدولاً.. وعندما اقترب.. فردت الشرشف.. رفعته في الهواء ونفضته في وجهه كي يبتعد.. لم يبتعد.. لم يتوقف حتى.. واصل تقدمه.. تراجعت أكثر.. وصلت إلى حافة السطح!

الهاوية خلفها

وأمامها القبلة

/.. قبلة واحدة وأعود.. قبلة واحدة فقط/

قبلة.. وهاوية واحدة خلفهما

وبينهما شرشف أبيض رقيق مبلول.. وصل إليها.. احتمت بالشرشف فاتحة ذراعيها.. و.. دخل هو في شرشفها فاتحاً ذراعيه.. ثم.. عصرها..

ظل الناس يتساءلون حتى المساء

لمن هذا الشرشف؟

الذي سقط على الرصيف.

لمن هذا الشرشف الأبيض؟

لمن هذا الشرشف يا ناس؟؟

ولكن أحداً لم يتعرّف عليه

اختفى

أصبح خرافة

ولذلك يقولون أيضاً: إنه..

صيدنايا

حزيران 1991

أصابع الموز

قبل موعد زيارتي بعدة أيام - ولحسن حظي.. جاءت زيارة زياد.. وقد اعتدنا أن نأكل الموز من زياراته.. هذه المرة كانت حصتي ثلاث موزات، واحدة كبيرة خضراء واثنتان صغيرتان ملتصقتان.. تناولت المنديل ومسحت الموزات بلطف.. بحثت عن كيس ورقي.. وضعت الموزات فيه.. ربطته بخيط صوفي وعلقته فوق رأسي..

قال زياد: لماذا لم تأكل؟ قلت: فيما بعد ليس عندي رغبة الآن..

كانوا ينظرون إلي وقد التهموا لتوهم، كل واحد موزة على الأقل.. أما كمال، صاحب الحكم الغريبة، فقد أطلق هذه المرة حكمة جديدة، وهو يقشر الموزة الثالثة، «كلها قبل أن تأكلك».. وقرب يده نحوي كي أقضم من موزته المقشرة ولكني رفضت..

كل يوم، وفي نفس الموعد - مساء - كنت ألقي نظرة على كيسي الورقي.. أفتحه أخرج الموزات الثلاثة.. أتناول المنديل وأمسحها واحدة واحدة بلمس اللطف والعناية.. ثم أضعها في مكانها ثلاثة توائم في سرير.. لم أنتبه إلى عيون الآخرين إلا عندما سمعت التعليقات: / إياك أن توجعها / أعتقد أنها من شمع.. / وزّعها على الشباب "يا ابي» / كلها أخي كلها قبل أن يسطو عليها كمال؟.. قلت: لا أستطيع.. حرام آكلها.. انظروا.. ما أجملها هكذا..

نعم، من عاداتي تجميع حبات الشوكولاته والملبس.. هذه أمور

عادية جداً بين المعتقلين وخاصة الآباء.. وكان الجميع يعرفون ذلك ويقدمون لي هذه الأشياء خصيصاً من أجل ابني عمر.. أما الموز، فلم يخطر على بالي قبل زيارتي الأخيرة، عندما أخبرتني زوجتي بما فعله عمر.. كان يتسلق كعادته شبك الحديد في غرفة الزيارة، ويسترق السمع إلينا، ويبتسم بدلع.. وعندما سألته: «قلت للآنسة بأنها كذابة؟»، قال، إي.. هي قالت وضع العصافير في القفص حرام..

فاجأني محمد بموزة تبقّت لديه.. قدمها لي.. وأصرّ.. قال، كلها أنت. ولكنني رفضت معتبراً أن ثلاث موزات كمية كافية، وأن المسألة في النهاية رمزية..

صباح يوم الزيارة جمعت ما لدي من حبات الشوكولاته والملبّس في كيس صغير ووضعت أيضاً الموزات في الكيس.. حلقت ذقني وغسلت رأسي.. لبست ثيابي.. ثم خرجت إلى الممر أتمشى وأنتظر وأرد على الأسئلة المعتادة، زيارة؟ نعم زيارة / سلم على الأهل.. / شكراً: سلّم على عمر.

/شكراً/ زيارة؟ نعم زيارة.. سلم سلم.. شكراً.. شكراً..

تجاوزت الساعة الثانية بعد الظهر - فقدت الأمل.. دخلت إلى مهجعي متصنعاً اللامبالاة، وتخلّصت من ثيابي.. بسيطة.. أهلنا تعبوا.. ملّوا.. لم تعد زيارات أحد منّا منتظمة / عشر سنوات.. عقد كامل.. / أعلم ذلك وأتظاهر بالمرح، فلماذا يخففون عني؟ أنا أعرف أن إمكانياتهم متواضعة.. ونفوسهم كبيرة، لا يستطيعون زيارتي وأياديهم فارغة.. أعرف أعرف.. ليست هذه هي المرة الأولى.. كم مرة حلقت ذقني وانتظرت أنا الذي لا يحلق ذقنه إلا بالقوة.. لماذا لا تصبح الزيارة بالنسبة لي عادية.. «لماذا يبقى فيها شيء من العيد وشيء من الجنازة.. لماذا بقيت طقساً كأول زيارة.. لماذا أشعر أن عصاراتي يتغيّر إفرازها وخلاياي تنشطر بطريقة مختلفة كلّما اقترب موعد الزيارة..

ولكن هذه المرة شعرت بأنني أنا الذي انشطرت.. إيقاع القلب تغيّر.. أصبح التنفس أكثر صعوبة من قبل، ومع ذلك أتظاهر بالفرح.. أنا أتظاهر بالفرح وعدم الاكتراث.. ممثل فاشل أنت.. كل ما يختلج في قاع نفسك واضح.. كل برغشة نراها كيف تحك جناحيها في فضاء روحك.. مقلوب أنت يا صاحبنا ووجهك من زجاج.. جلدك شفاف شفاف.. أعرف أعرف.. ومع ذلك أحاول أن أتظاهر بالمرح..

لم أستطع النوم يومها..

وفي الأيام التالية أيضاً لم أستطع النوم

أيام كثيرة مرّت.. كثيرة جداً.. بطيئة جداً..

وكان عزائي أن لون الموزات – التي استلمتها خضراء تقريباً – قد أصبح الآن ذهبياً يميل إلى القتامة ولكن القتامة الجميلة.. كم كانت جميلة.. كم كانت مسالمة وناعمة ولطيفة.. وكنت أعتني بها أكثر من اعتنائي بأسناني التي بدأت تؤلمني..

من يعرف شيئاً عن أهلي..؟ لا أحد.. من يعرف شيئاً عن زوجتي الوحيدة وابني الوحيد..؟ لا أحد لا أحد.. وانفتحت هواجسي ثغرة في خزان النفط.. وبدأت أتطيّر من كل شيء.. أهتم بالجريدة اليومية.. ولا أعرف لماذا كنت أفتحها دائماً على إعلانات الوفيات – .. ألم ضرسي – في هذا الوقت بالذات – لم يكن صدفة.. رفضت خلعه رغم إصرار الطبيب.. تورم وجهي عدة مرات ورفضت.. استغرب الجميع ذلك.. قالوا تخلّص من ألمه.. قلت لا يؤلمني.. سيسبب لك التهاباً خطيراً في اللثة.. ليسبب.. وقال الطبيب: لا يمكن إصلاحه.. وقلت، أعلم وقال، «.. أعوضه لك مباشرة وقلت: أعلم..» قلع الضرس نذير شؤم.. خرافات، منطق لا يقبله العقل العلمي.. أعلم أعلم أعلم.. وكم كان بؤسي شديداً عندما اكتشفت أن لون الموزات أصبح أسود..

بقيت تلك الليلة جالساً كالصنم.. بدأت العصافير تزقزق وأنا أدخّن.. نصفي تحت البطانيات العسكرية.. ونصفي الآخر متكئ على الجدار.. يدخن.. لا أستطيع النوم.

لا أستطيع القراءة

لا أستطيع الكتابة

لا أرغب في شرب الشاي ولا القهوة ولا الماء ولا.. أي شيء..

كنت ذاهلاً.. مسطولاً تماماً.. مشوش الفكر من الأفكار.. تشدني الأوهام بالقوة نحو الأسود.. تنهال علي القصص والحكايا ولا أدري كيف.. من أين أخترع الحوادث.. أحبك المصائب بتفاصيلها.. وأتخيّل، كم سأكون بائساً عندما أعلم بالنبأ.. سيشفقون عليّ؟ سيقولون يا حرام تركته زوجته.. ماتت.. إذا علمتُ لن أخبر أحداً.. لن أطيق أن يتحلقوا حولي.. يصنعون القهوة.. ويدورون بالأكواب.. لا أحب المواساة لماذا تأخروا كل هذه المدة؟ مضى على موعد الزيارة ثلاثة أشهر كاملة.. لم يحدث مثل ذلك أبداً.. يخافون عليّ؟ يريدون إخباري بالشكل المناسب..؟ لا يريدون إخباري بما حصل..؟ سأفقد عقلي إذا علمت.. هل أفقد عقلي؟.. كيف سأتلقى النبأ: سيارة مسرعة.. مجموعة من الأطفال.. تلاميذ مدرسة.. المعلمة ابتسام تصرخ.. بين عجلاتها.. يتدحرج أحدهم.. دم، عويل إنه هو.. كيف لملموه كيف، كيف تلقّت زوجتي الخبر.. جنّت أكيد جنّت.. من حفر له القبر.. أين - بأي حجم هو.. هل كان عميقاً.. واسعاً. يهيلون عليه التراب.. عليه.. لا لا يمكن هكذا ببساطة هل يمكن، هل يعقل، أنني لم أعرف حتى الآن.. الخبر السيء يصل بسرعة مستحيل.. أتجسس على الشباب أراقبهم أراقب رفاقي، كيف يتعاملون معي.. يرعبني اهتمامهم بي.. يرعبني عدم اهتمامهم.. يشفقون علي.. يتظاهرون

بعدم الاكتراث.. يسألني أحدهم عن ابني بأي صف هو.. إنه يعلم.. يعلمون ولا يريدون إخباري.. كيف سيفعلون ذلك.. كيف.. من يتجرأ.. بأي اسلوب.. كيف يبدأ.. أخذ رأسي يدور وشهقت كمن نسي أن يتنفس منذ الصباح..

وشعرت فجأة بوخزة قوية في صدري.. ألم مباغت تحت الثدي الأيسر تماماً.. هناك وخزة تشبه اللسعة.. انتفضت وشهقت وعندما وضعت يدي على قلبي احترقت أصابعي وشممت رائحة قماش يحترق.. كان صدري يحترق والدخان يصعد منه و.. نفضت جمرة السيجارة التي اخترقت ثيابي ووصلت إلى اللحم.. أبعدت القميص الداخلي عن جسدي وحنقت المكان المعطوب بين أصابعي.. وعندما تفحّصت الثقب الأسود الذي اخترق البيجامة الشتوية وقميص الصوف الداخلي.. شيء عجيب.. ثقب يستطيع أن يخرج منه فأر كبير.. لأول مرة في حياتي أحرق ثيابي بسيجارتي. هل هذه صدفة أيضاً.. الا يعني ذلك شيئاً؟ وبقيت أبحلق بحالي حتى شعرت بألم الحرق.. تخلّصت من ثيابي.. دائرة حمراء صغيرة ولكن ألمها لا يُطاق.. غطيتها بمعجون الأسنان.. شعرت بالبرد بالقشعريرة. أول مرة أكتشف أن لون القشعريرة فضي مسحوق.. تناولت سترتي الشتوية.. ارتديتها وتمددت تحت البطانيات العسكرية.. هذا.. نذير.. نذير شؤم..

زقزقة العصافير تغيّرت نبرتها.. طلع الضوء ولكن الحياة اسودت في عيني.. ما أشقاني ما أشقاني.. ما أسوأ حظي.. ما أتعسني بين البشر.. لن أستطيع الابتسام بعد اليوم.. لن أستطيع النوم / لو كنت محظوظاً لما وقعت في هذه المصيبة.. ولد وأنا في السجن تعرّفت عليه من خلال قضبان الحديد.. لم أحتضنه ولا مرة واحدة.. لم أساعده في حل وظائفه ولا مرة واحدة.. لم أغضب ولا

مرة واحدة، أمد يديّ من شبك الحديد حتى تكاد أن تخرج من كتفي كي ألمس أصابع يديه.. وسنحت لي هذه الفرصة.. هذه السعادة الصغيرة: أن أهديه ثلاثة أصابع من الموز ولكن اسودّ الموز اسودّ المو.. سيارة كبيرة عسكرية.. سيارة بطانية عسكرية كبيرة تابوت صغير تا.. بوت.. وبكيت..

شهقت شهقات متواصلة وبكيت فجأة

حاولت أن أضبط نفسي كي لا أوقظهم ولكنهم نهضوا جميعاً كانوا مذعورين..

ظنوه كابوساً ونهضوا

وكنت خجولاً فتواريت تحت الغطاء

وفجر الموقف المفاجئ عواطفي، وأخذت أبكي لأنني أبكي.. أنا، أصبح بكائي عويلاً

وتحول صمتهم المذعور إلى ضجيج..

كانوا يريدون أن يفهموا فقط ماذا أصابني

وكنت عاجزاً عن الشرح

عاجزاً عن الكلام

وعاجزاً عن الظهور أمامهم بخدين مبللين..

.. انبعث الدفء في المكان.. لا بد أن الشمس قد عادت عبر الحديد وأنا ما زلت مختبئاً تحت الغطاء.. بدأ الآخرون - دون كلام - يحضرون الشاي من أجل الفطور.. يشربون القهوة والمتة.. ظنوا أنني غفوت.. سمعت همسهم وتساؤلاتهم: هل أزعجني أحد؟ هل أساء إلي أحد؟ هل أخفي شيئاً؟ ولاحظ بعضهم أنني تغيّرت في الفترة

الأخيرة.. وأشار أحدهم إلى أن زيارتي قد تأخرت.. واستبعدوا أن يكون ذلك هو السبب واقترحوا إحضار الطبيب.. واقترحوا أن يتركوني نائماً.. وسمعت أكثر من مرة كلمة هـ.. س س س..

شعرت بالدفء.. عدت إلى رشدي وبدأ الجلد المحروق بالمي.. وتذكرت قصة محمد التي لا يعرفها أحد غيري.. كم أزعج الآخرين بتكتمه، بحزنه وعجز الآخرين عن مساعدته.. عاد من الزيارة أسود الوجه صموتاً.. وظل أكثر من يومين لا يأكل ولا يتكلم وأفشل كل المحاولات في التخفيف عنه.. وكنت طوال الليل أختلس النظر إليه وكان هو طوال الليل يختلس النظر إلي.. نهضت كالعادة بعد الرابعة صباحاً كي أعمل كأسين من الشاي ودون أن أستشيره ملأت كأسين كبيرتين وجلست قبالته على الفراش.. وقص علي القصة كاملة..

«أخوه الأصغر - الذي بحجم البغل كما وصفه - ضرب أمه على رأسها فأدخلها المستشفى.. ويقال بأنها فقدت وعيها.. ويقال أصبحت مشلولة..» قصة بسيطة وصغيرة ولكنها بالفعل مؤثرة. كم كان حزيناً.. كم كان حزيناً ومخذولاً.. بعد ذلك أخذ محمد يضحك ويأكل ويثرثر.. ولكنه لم يذكر لأحد سواي أسباب بؤسه وتعاسته بعد تلك الزيارة..

كشفت عن وجهي.. استدارت كل الوجوه نحوي..

ابتسمت.. وكدت أنهض وأقبلهم جميعاً.. وشعرت أن يدي طويلتان طويلتان كسور السجن ولكنني اكتفيت بالابتسام وبشكل خاص لمحمد / نهضت.. وسألت وأنا أتوجه إلى المغسلة: الفطور جاهز؟ قالوا معاً: جاهز.. جاهز..

محمد كان قريباً جداً من قلبي.

محمد الشخص الوحيد الذي لم أستطع أن أبني بيني وبينه جداراً.. هو لا يسمح لك ببناء الحواجز، وأنت لا تستطيع، وإن استطعت كان جدارك هشاً معرضاً للسقوط.. محمد كان يزيل الحواجز مهما علت.. بإصبع يده يزيلها ويدخل إليك.. حافي القدمين يدخل.. منتعلاً يدخل.. محمد كان حيواناً أليفاً..

عندما فتحوا الأبواب صباحاً خرجت.. ودون أن أطلب منه خرج معي.. وبلا اتفاق مسبق سرنا معاً في الممر.. كنت أريد أن أفضي إليه.. وكان هو يريد أيضاً أن يسمع.. البكاء شيء فظيع.. هكذا وبصوت مرتفع، لم يحصل ولا مرة واحدة خلال فترة السجن.. بل لم يحصل في حياتي.. كنت خجولاً من الأعماق كمن فقد كرامته الشخصية أو انكشفت روحه السرية.. لم يبدأ هو الكلام.. ولم أقل أنا شيئاً في البداية كنت أنتظر أن يسألني وكان هو ينتظر أن أبوح له.. وماذا أقول.. «تأخرت زيارتي».. كل الناس تتأخر زياراتهم ويصبرون يقلقلون يتطيّرون يحسبون ألف حساب يحلمون أحلاماً مزعجة.. يهجسون ويتوقعون دائماً شر الأمور ولكنهم لا يبكون كالأطفال.. وأخيراً قلت «محمد..» قال نعم، قلت: اسودت الموزات.. قال: أي موزات؟ قلت الموزات.. الموزات التي وزعها علينا زياد / زياد! متى وزع زياد علينا الموز / في الزيارة الأخيرة وقد وضعتها في كيس الورق / توقف محمد، نظر في عيني مباشرة.. كانت رأسه كبيرة جداً وعيناه واسعتين، ولذلك شعرت بأن نظرته كبيرة وأليفة كنظرة الحمار.. قلت: وأنا خبأتها.. قال: إي.. قلت: من أجل عمر.. قال: إي.. وحكيت له القصة من أولها إلى آخرها..

أطبقوا عيونكم وتمنوا.. قالت ابتسام معلمة الصف الثاني،

ولكن التلاميذ لم يفهموا. أطبقوا عيونكم.. مفهومة.. يعني نغمضها..
ولكن كيف نتمنى..؟ مفهومة: قالت: «لاوند».. يعني نغمض عيوننا وننام.. لا لا نغمض عيوننا هكذا.. أطبقت المعلمة عينيها وهي واقفة، فتمسك ذراعيها كي تتوازن وتقدمت بحذر: ننسى أننا في المدرسة.. ننسى أننا في الصف.. نحلم.. نتخيل مناماً ما دون أن ننام.. أنا أتمنى أن أفتح عيني وأرى باقة ورد كبيرة أمامي.. فتحت المعلمة عينيها، أو، أطبقت عينيها ثانية.. أو أتمنى أن أفتح عيني فأجد أمامي قفصاً ذهبياً صغيراً فيه حسون جميل أو سمكة فضية براقة العينين في حوض زجاجي.. فتحت ابتسام عينيها وحدقت في الأطفال: مفهوم؟ مفهوم مفهوم: صرخوا جميعاً بسرور مشجعين المعلمة على البدء باللعبة.. كان واحد فقط من التلاميذ صامتاً وبدأ كما لو أنه غائب أو غاضب أو لا يريد أن يشارك في اللعبة.. وكان التلميذ الوحيد في الصف الذي اعتقلوا أباه قبل أن يولد..

اقتربت ابتسام منه وسألته: لم تفهم؟

«يا الله ما أكذبك يا آنسة ابتسام..» هكذا صرح الطفل معاتباً.

شيء ممتع.. لم يصادفها أبداً مثل هذا الموقف - خلال سنواتها الخمس في تعليم الصفين الثاني والثالث. نفس العبارة وبنفس الطريقة قالها ابنها الصغير منذ أيام: يا الله ما أكذبك يا ماما.. حاولت يومها أن تشرح له أنه لا يجوز أن يقول للماما مثل هذا الكلام ولكن زوجها لم يكتف بالشرح - رغم أنه مدرس أيضاً - بل رفع صوته وهدد بالضرب والذبح مما جعل الطفل يفتح عينيه دهشة ويبكي.. يجوز.. لا يجوز.. بل يجب.. أترك تربيته علي.. إنه طفل.. لن يبقى طفلاً.. وعرجاً على علم النفس والتربية.. وتطايرت أشلاء فرويد وبافلوف.. ثم انتهت المعركة كالعادة بالنوم..

أنا كذابة يا عمر.. سألت المعلمة متوددة، ولكن الصبي لم يرد عليها..

طيب قل لي لماذا؟ قل.. لا تخف

وقف التلميذ حائراً من جهل معلمته وقال أخيراً: هكذا..

كيف هكذا دون سبب.. ها..

كذابة مثل ماما..

ماما أيضاً..؟

البارحة قلت لنا. وضع العصافير في القفص حرام..

توقفت الآنسة ابتسام عن الكلام.. صحيح.. هي قالت لهم ذلك ولكنها نسيت؟ كان الحديث يدور عن الطفل الشرير الذي يعذّب العصافير والقطط.. وهو بالذات - هذا العمر - سألها: هل تبكي العصافير والقطط يا آنسة..؟ طلبت منه أن يجلس فجلس شرحت له أن الحسون طائر جميل الشكل والصوت وأن الإنسان يتمتع بتغريده ومنظره فيضعه في القفص كي يراه ويسمعه ولذلك يعتني به.. يطعمه ويسقيه ويلاعبه ولا يعذبه أبداً أبداً..

كان التلميذ يصغي.. يدور عينيه الواسعتين ويتابعها بنظراته.. ولكنها لم تتأكد إن كان قد اقتنع بكلامها أم لا.. فهي نفسها شعرت بالحرج.. وبالتناقض.

أطبقوا عيونكم.. فأطبقوها.. غطوها بأيديكم.. غطوها.. والآن سنتمنى شيئاً نريده أن يتحقق فوراً عندما نفتح عيوننا..

وساد صمت رائع.. وساد صمت مريع.. الأصابع الصغيرة مشدودة بإحكام على العيون الكبيرة.. والمعلمة وحيدة.. الأطفال يحلمون الآن.. والمعلمة وحيدة.. تقف وتراقب.. بماذا تحلم هذه

المرايا؟! أية مفاجآت ستسمع المعلمة ابتسام؟ أي خيالات.. ولماذا يتهمنا الصغار دائماً بالكذب، رغم أننا نحاول جاهدين ألا نكذب عليهم أو حتى أمامهم.. ولماذا لا يحاولون الغش؟ لماذا لا يحاول أي منهم أن يفتح أصابع يديه قليلاً ويختلس النظر متظاهراً بأنه يحلم.. لماذا يصدقون اللعبة..؟ لقد تكررت هذه اللعبة عشرات المرات ومع مئات التلاميذ.. إلا أنها وكأول مرة تشعر الآن نفس الشعور.. الانقباض.. الحزن.. إنها طفلة ولكن.. طفلة سيئة..

طيب.. والآن.. افتحوا عيونكم يا «شاطرين».

عادت العيون إلى اتساعها واستدارتها، وشخصت جميعها إلى المعلمة، وفي أعماقها يلتمع فرح طفولي غامض ورغبة راقصة في الكلام.. وارتفعت الأصابع مستجدية ما عدا إصبع واحدة، إصبع نفس الطفلة لاوند التي غطت فعلاً في نوم عميق..

تركتها المعلمة نائمة على المقعد وبدأت باختيار التلاميذ..

ميساء.. ماذا تمنيت يا شاطرة؟..

أن أفتح عيني وأرى أمامي لعبة تنام في السرير..

ممتاز.. عماد..

أنا تمنيت أن.. تمنيت.. طائرة ورق.. تطير.. و.. خيطان طويلة.. طويلة.

يا سلام.. عظيم.. ميسون

أنا تمنيت أن أتزوج

ضحكت المعلمة ابتسام بصوت مرتفع.. خجلت ميسون.. سألتها المعلمة:

ومن من تريدين أن تتزوجي؟

رفعت ميسون غرتها بظاهر يدها مستغربة ضحكة المعلمة وقالت: أريد أن أتزوج بابا.

توقفت المعلمة أخيراً عن الضحك ثم شرحت لميسون أنه لا يجوز لها أن تتزوج بابا وأنه يجب عليها الآن أن تكبر وتتعلم..

عمار:

أنا تمنيت أن.. أن..

ماذا تمنيت؟

ابتسم عمار بخجل وقال: نسيت.

يه نسيت: حاول أن تتذكر.. حاول..

نسيت.. نسيت.. وكاد أن يبكي

طيب، طيب، اجلس.. وأنت يا عمر ماذا تمنيت.

توقعت ابتسام أن يتمنى عمر رؤية أبيه مثلاً وقد خرج من السجن.. ولكن عمر صرخ وأشرقت عيناه:

أنا تمنيت أن أفتح عيني وأجد كومة كبيرة من الموز.. وفتح ساعديه على اتساعهما..

موز يا عمر، سألته المعلمة مستهجنة

نعم موز.. أنا أحب الموز كثيراً

طيب.. اقعد..

شعرت ابتسام بالغم.. اتجهت ببطء نحو الطفلة النائمة.. مسحت شعرها فاستيقظت.. صباح الخير يا لاوند.. فركت لاوند عينيها ونهضت.. صباح الخير.. وماذا تمنيت أنت يا حلوة؟

لم تعرف الطفلة بماذا تجيب.. فسألتها المعلمة:

لمليت النوم؟

نعم.. قالت لاوند

ونمت؟

نعم يا آنسة.. نمت..

انتهيت من قصتي ومحمد يحدجني بين جملة وأخرى بنظرات مواربة سريعة.. كان يتجسس عليّ.. قلتَ: ما رأيك أن ندخل الآن ونأكلها قبل أن تخرب.. فاجأني بسيجارة استلها من جيب سترته وقدمها لنا.. كلها.. قلت: نعم.. إذا ما زالت سليمة.. قال: نأكل ماذا؟ قلت: الموزات.. قال: الـ.. مو.. زات.. قلت: نعم.. تعال..

ومشيت أمامه فتبعني مأخوذاً.

في البدء لم أفهم سبب استغرابه ولكنني عندما وصلت إلى الكيس الورقي ولم أجده.. نظرت إلى محمد ونظر هو إلي.. هو برأسه الكبير وعينيه الغامضتين وأنا برأسي فقط.. أين كيس الموز؟ تساءلت.. وبدأت أبحث في كل مكان ومحمد يقف كالعمود لا يدري ماذا يفعل أو ماذا يقول.. وسألني زياد بنفسه: عما تبحث؟ قلت عن الموزات.. قال: أي موزات؟ قلت: الموزات التي أحضرتها بزيارتك ووزعتها علينا.. كانت في الكيس ثلاث موزات.. تبادل زياد ومحمد النظرات.. قال زياد: متى؟ قلت: كيف متى من شهر تقريباً.. قال: من شهر؟ وضحك.. أنا زياراتي كل ثلاثة أشهر. ولا اذكر في كل زياراتي انهم احضروا معهم موز.. أنت غلطان على الأرجح..

ادهشني ذلك.. لم افهم.. كيف.. فعلاً زيارة زياد كل ثلاثة أشهر هل أخطأت في الزمن..

وتجمهر الباقون حولنا فأعدت عليهم حكاية عمر وحكاية الموزات وقبل أن أكمل حكاياتي أمسك محمد ذراعي بلطف وجرني باتجاه الممر وفي الممر قلت.. لا افهم شيئاً يا محمد.. وقلت أنا يا محمد وضعتها بيدي هاتين.. ثلاث موزات. في كيس من الورق وثلاث موزات.. من أجل.. عمر.. يا محمد.. فهمت..

صيدنايا

21 حزيران 1991

فوق الثلج

إلى روح الأستاذ صياح جهيم..
استاذنا الذي رفض في حياته ذكر اسمه.

كان مرسل شبيهاً بعمود الكهرباء، رغم أن الفرق بينهما - إذا أردت - كان جوهرياً.. فهو يحمل مصباحاً بحجم الرأس.. وفي المصباح فوهتان تحيط بهما أهداب سوداء، نحيل ومستقيم كالعمود وكالعمود يقف على ساقين طويلتين يقذفهما - أثناء المشي - إلى الأمام مثل الجمل.. وله أيضاً أسلاك وكتفان عريضتان ولكن يسري فيه تيار كهربائي مختلف القدرة والذبذبات.. وهو لا يتواجد في مكان واحد كالعمود بل يتحرك عندما يريد ويقف حيثما يشاء.. ويا ليته كان عموداً من خشب أو حديد.. يا ليته كان شجرة يابسة - فالأشجار الخضراء أيضاً تنتقل تتمايل تنحني تحت الثلج وقد تتقصف.. كان عارياً متشقق الجلد، نعم وعلى قامته حفرت بضعة أحرف، وحتى يطبع كلمات.. ولكنه كانت له بالمقابل ذراعان طويلتان يستطيع إسبالهما عندما يرغب ولا يرفعهما إلا عندما تمر الدهشة من أمامه - وكم كانت تمر - فيقف في منتصف الطريق غير عابئ بالناس والطنابر.. بالجرارات والحمير.. ثم يجلس بعدها على الرصيف مهدوداً كالمقعد.

كان مرسل شاعراً..

وبين يديّ الآن دفتره المكتوب بخط سيء.. فيه أشعار وخواطر وملاحظات وعلى الصفحة الأولى في الزاوية - ككل طلاب المدارس كتب اسم المدرسة الشعبة والتاريخ..

مرسل الجباعي

ثانوية شكيب أرسلان الرسمية للبنين

ثاني عشر - أدبي 1966 - 1967م

وأنا أكتب الآن ما أكتب والمسدس البارد فوق أوراقي التي قاربت على الانطفاء مسدس سوفييتي عيار 7 مم، يرمقني بأنفه الطويل وعينه الوحيدة المدوّرة الصغيرة السوداء.. وهل يمكن للمسدس أن يكون له غير هذا الأنف وهذه العين المدورة الصغيرة السوداء..؟

وأنا أكتب الآن ما أكتب وأنا أعلم أنني لن أقرأ أبداً ما أكتبه، فأوراقي ستنهض في الصباح تبحث عني وتنتظر حتى يسمل الغبار أجفانها الشاخصة.. أصبحت أكره الأوراق البيض والمكتوبة - أصبحت أكره الكتب والدفاتر والجرائد.. وأنا أكتب الآن ليس عن مرسل.. وإنما عني أنا «ربيع عمر» واحد وخمسون عاماً - الذي ضيّع عمره وهو يركض في العتمة خلف فراشه.. فمرسل يبقى ذلك الجاثي - كما رأيته آخر مرة: القلم بين أصابعه.. ثلاثة أحرف.. خط منزلق على قصاصة ورق.. وبقعة حبر صغيرة على الثلج..

وأنا أكتب الآن وأعلم أنني أصبحت شجرة مدمرة تخاف منها العصافير ولا تصلح حتى للنار.. فلماذا أفعل؟ ما فائدة الحبر والأوراق إذا ابيض الحلم كالعين البيضاء..؟

كان مرسل شاعراً..

ويا ليته كان عموداً أو شجرة يابسة أو حجراً ويكتب مرسل:

درج طويل

درج طويل ومرتفع

درجة درجة على قد الجبل

في آخر الدرجات باب بعيد مقفل

صباح الخير – أصرخ

أدق على الباب الصغير بصوتي

أدق.. أدق..

لتفتح السماء

وتخرج شمس

ما زالت في ثياب العرس

تمشط شعرها

أمام المرايا..

ويكتب ايضاً:

لا بد من نافذة واضحة

بعد عقداً كاملاً يا صديقي خلف القضبان – قادتني الفراشة إلى هناك – عشر سنوات.. تغيّر الكون خلالها.. تغيّر التاريخ.. تغيّر العالم.. سقطت اشجار كثيرة.. سقطت مدن وارتفعت جبال.. أصبحت غريباً.. كل شيء يقضم الذاكرة.. يدمّرها تخرج، فلا تعرف شيئاً بدءاً من طريق القرية.. من الجغرافيا: البيوت الشوارع الساحات – وحتى

جغرافيا الجسد.. من كان طفلاً أصبح رجلاً ومن كان رجلاً شاخ.. ومن كان عجوزاً مات.. وتركوا فراغاً في الذاكرة..

ويسجل مرسل مقطعاً لماياكوفسكي

«الإنسان الحر - الذي أصيح به

سيأتي

صدقوني

صدقوني سيأتي..»

ويعلق مرسل: لا حاجة للصراخ..

السويداء والحجارة السوداء والتربة الناشفة

إلى من نوجه إصبع الاتهام؟ إلى الليل؟.. أتهم الليل إذاً.. الليل الذي ترك لونه يحل على حجارتنا: كومة من حجارة وغبار. زواريب تعجز العنزة المجنونة عن اجتيازها.. حجارة ورماد.. شوارع من حجارة ورماد.. بيوت من حجارة ورماد.. دكاكين أسوار أرصفة ميادين مستنقعات.. أشجار من حجارة ورماد.. كأنك تتجوّل داخل فرن عتيق.. سخام وطحين.. وبعر فئران.. كأنها مدينة مسحورة من ألف ليلة وليلة.. من صنعها؟ من أحرقها؟؟ البراكين؟ سراج الجبل احترق منذ آلاف السنين فأحرقها وأحرقنا..؟ إلى من نوجه السؤال؟ وفي صدر من نغرز أصابعنا البيضاء..؟

كان مرسل يعتقد أن السويداء بيضاء، منذ الطفولة وهو يحلم - مثل كل القرويين برؤية السويداء - عاصمة الجبل - شوارع الإسفلت والإسمنت المسلّح والبيوت المسقوفة بالقرميد. السويداء الكهرباء والماء والمجارير والطوابق والسيارات..

وكان مرسل يرفع ساعديه كلّما مرت الدهشة، ثم يتخلّى عنهما

السلطان على فخذيه الشخصيين، محدثتين صوتاً يشبه صوت الديك عندما يصفق بجناحيه.. «السويداء قرية يا شباب قرية كبيرة..» تمر البيوت القديمة الكالحة - التي يمتطي بعضها بعضاً - حارة الباروكي حارة البدعيش بيت أبو عسلي حي الطرشان مضافة جربوع نعيم عزي الجرماني اشتي أبو الفضل.. مضافات، من الداخل مطروشة بالكلس ومن الخارج سوداء. تمر الزواريب والساحات الضيقة الموحلة المغبرة، المغبرة الموحلة.. تمر الشراويل السود والقنابيز السود والعباءات والتنانير والفساتين السوداء.. تمر الحمير السود والطنابر الرمادية والعربات.. فكم مرة يستطيع مرسل أن يتخلّى عن ساعديه ويتركهما وشأنهما السلطان على فردتي بنطاله الباهت..؟ حتى فوط النساء الناصعة والبدلات العربية الزاهية والذهب البرّاق - الذي ترتديه الصبايا فقط - حتى قطاضات الرجال البيض وعُقلهم السود كانت تثير الدهشة والاستغراب.. وحتى البيوت الإسمنتية المسقوفة بالقرميد - تبين أنها فرنسية الصنع.. والشوارع.. والكهرباء.. في الليل، منظر السويداء - من بعيد يشبه الثريا المعلّقة بين الأرض والسماء.. فلمن تضيء الكهرباء؟ وضد من؟ ومن صنع هذا التناقض المذهل الجميل الكئيب؟ لماذا يلبس الشيخ مثلاً لفة بيضاء، وثوباً أسود؟ ولماذا تلبس الشيخة فوطة بيضاء، وطيلساناً أسود؟ ولماذا يشبه الناس البيوت والبيوت الزواريب والزواريب المدينة والمدينة الجبل..؟

ويكتب مرسل: كم أخاف من الذهب..؟

لماذا يختلط الذهب في قاع ذاكرتي مع الحجارة والرماد؟ ما زلت أذكر خشخشة الأساور.. طربوش أمي الأحمر المسقوف بقرص دائري من الفضة المخرمة المزركشة.. طربوش العرس المسيّج بشكّة من الليرات الإنكليزية «الرباعي» المرصوفة صفوفاً صفوفاً فوق بعضها، هلالاً على الجبين وتتوسطها ليرة كبيرة «فلسطينية» بين الحاجبين..

و«الغوازي» التي تشكل هرماً مقلوباً من الذهب يغطي السالفين.. هل كنت ألعب بالليرة أم الحصان الإنكليزية المعلّقة في عنق أمي، والمتدلية بين ثدييها، فوق عيني مباشرة؟ من يدري ربما كنت ألعب وأقطع السلسلة أحياناً فتضربني أمي على أصابعي وتسحب حلمتها من فمي عقاباً لي.. كان الذهب يلمع طالما كانت المرأة تلمع.. ثم يختفي كل شيء حالما تبدأ بتركيب أسنان وجسور ذهبية.. تختفي الليرة - أم الحصان - عن الصدر «تخاط الشكة» «الرباعي» و«الغوازي» بقماش أسود أيضاً.. تستلم المرأة دينها وتتحوّل إلى تلة قاتمة تعلوها قبة بيضاء كالمزار.. لماذا يختبئ اللحم - كل أنواع اللحم - وتمنع رؤيته أو لمسه..؟

ويكتب مرسل

المرأة أرنبة أنف وعينان

فمن المسؤول عن ذلك..؟

«إذا أشرت بسبابتك متهماً شخصاً ما - فإعلم أن ثلاثة أصابع أخرى في كفك تشير إليك..».

رفعت المسدس بإصبعي من إسوارة زناده.. وضعته جانباً.. وتناولت ورقة بيضاء ناعمة.. فالورقة تبقى ناعمة ما دامت بيضاء.. لماذا نكتب عليها..؟ جيل كامل ونحن نكتب.. أجيال ونحن نحلم ونسجل أحلامنا.. نتساءل ونكافح من أجل الـ.. يا للذل يا مرسل.. أصبحت أخجل من ذكرها.. عشر سنوات.. مئة.. مئات.. جهد وعرق ودماء.. حبر وحماس وجدل ورسوم وأغنيات..

ويكتب مرسل منذ ربع قرن:

رائع.. رائع

إن الناس لا يمكن أن يتفقوا

فلو اتفقوا أن يصرخوا بصوت واحد

لتهشمت السماء إذاً فوق رؤوسنا

ونامت الأرض بلا غطاء..

خلصت قنينة الكاز الصغيرة

كانون الثاني متطرف جداً برياحه وأمطاره وثلوجه وبرده..

شخر البابور عدة مرات، وانطفأ مصدراً فحيحاً ممزوجاً بالدخان الخانق.. كانوا يتحلقون حول لوح من التنك، محطوط على بابور الكاز الألماني الصغير..

القنديل ليس مشكلة، بقي لديهم شمعة.. أشعلوا الشمعة وافرغوا ما تبقى من زيت القنديل في البابور: «نستقرض - ولو - انقطعت النخوة» «النخوة لا تنقطع ولكن البخل أيضاً لا ينقطع»..

لقد اقترضوا حتى الآن قنينتين، وصاحب الدار هو الوحيد الذي يملك برميلاً من الكاز.. ارتبكوا.. و«نكسر أنفسنا له أيضاً..؟» «نكسر، وما الحل؟.. أشعل مرسل البابور من جديد ووضع عليه طنجرة البرغل، «قلت لك تعال نطبخ أولاً» «برد لا يطاق» «بررررر..» لم نتعش حتى الآن «يا حبيبي» «حفنة عدس لم يعطنا..» أي لا، لو كان لديه لما قصّر.. «لديه لديه» «أقسم بالمجدرة أن الكوارة مليئة بالعدس والحمص» و«عينه فارغة..» «نحن لا نشحذ، قرضة الله حسنة» «قريباً سيأتي المدد» «وما الفائدة من كثرة الحكي، بعد قليل نموت من البرد» «والجوع».. «من يذهب؟..» «غداً مذاكرة عربي».. صمت الجميع.. تحركت ظلالهم على الجدران.. ظلال سوداء أيضاً.. محنية الظهور.. مرتبكة.. أربعة طلاب قدموا من قرية نائية، يتربعون الآن

في غرفة صغيرة مليئة بالبراغيث والقمل والبق، والشقوق التي عجزوا عن سدها وترقيعها ينفذ منها الهواء الكانوني، ويدخل في عظامهم.. شخر البابور من جديد، وانطفأ.. وفي نفس اللحظة تك تك تك.. بدأ الدلف يتسرب من السقف الطيني، فسارعوا إلى وضع الصحون تحت القطرات الموحلة.. كان المطر يدبك والريح ترفس الباب وتزغرد بالمقلوب «من يذهب؟» عاد السؤال.. لم يتشجع أحد.. فهم يعرفون الجواب ورفض الطلب ليس سهلاً احتماله.. «الأفضل أن نتكوم معاً في فراش واحد فيدفئ بعضنا بعضاً».. ممكن ولكن كيف يسلقون البرغل؟ على الشمعة الوحيدة التي لا تستطيع أن تدفئ نفسها؟ وغداً صباحاً، الحصة الأولى: الأستاذ صياح - تراجم ونقد - والموضوع حول بدر شاكر السياب مذاكرة في حياته وشعره - ومرسل يعشق دروس الأستاذ صياح ويعشق السياب.. يجب أن ننام مبكرين.. «العمى.. ما هذه الصدفة» «حياة».. خلصت المونة منذ يومين وكل يوم يمرون ثلاث - أربع مرات على الكراج ولم يصلهم من الأهل شيئاً.. لا عدس ولا برغل ولا سمنة ولا زيت ولا زبدة ولا مكدوس ولا لبن ولا جبن ولا سكر ولا شاي ولا حتى ملح.. حدث ذلك عدة مرات من قبل، حدث كثيراً ولكن ليس بهذه القسوة.. لم يكن لديهم مذاكرات ولا سياب.. وفي أيام الدفء يصرفون الكاز على الطبخ والإنارة فقط.. أما في الشتاء.. في كانون.. فلا بد من التدفئة بأي شكل كان.. فإلى من يشيرون بأصابع الاتهام إلى ابن الكلب، البابور الألماني الأصفر - هذا المسكين المشحر الذي شخر ويشخر ويدخن..؟

«نذهب إلى دار عابد وننام عنده / والله فكرة.. وعابد عنده كهرباء..» «مجنون أنت؟ المرة الماضية طردنا بالتي هي أحسن..» «وماذا نفعل إذاً» «نستقرض هذه القنينة من عند جارنا أبو أمينة، هذه القنينة فقط.. وإلا سيقولون انقطعت النخوة في الجبل..» «طيب

امسل، خذ القنينة وبوجهك لعند أبو أمينة» «أنا؟ والله الموت من البرد أحسن من لسانه» «ومن سيذهب إذاً..؟ ويسود الصمت من جديد وتعلو أصوات الريح والمطر والدلف..« نعمل قرعة «نعمل قرعة» «لا».. صرخ مرسل «هات القنينة» «نعم أخي مرسل أنت شاطر وتعرف كيف تتكلم معه» «ولكنك أحضرت واحدة قبل الآن» «والآن أيضاً.. يجب عليه أن يعطينا..» «قل له كرمى للسياب أخي مرسل» «نحن طلاب يا جارنا المحترم وعندنا مذاكرات..» ويصل مرسل إلى العتبة.. يلبس.. يفتح الباب.. يحني قامته ويخرج بسرعة..

وأمام باب الجار يستجمع كل ما تبقى لديه من جسارة.. ويطرق الباب.. «من؟» هذا صوت أمينة ابنة صاحب الدار «أنا مرسل جاركم»..

أمينة كانت تتحرش بمرسل تتحرش بعينيها بشفتيها بجسدها.. ومرسل كان يخجل من عينيها وشفتيها وجسدها.. يخجل لمجرد أنها أنثى.. لم يكن لديه وقت للحب والرجولة والتحرشات.. لم يفكر بذلك أصلاً.. كان رجلاً مع الكتاب فقط.. وكان طالباً مجتهداً.. شعلة من الذكاء / كما قال الأستاذ صياح / خسارة.. خسارة يا مرسل../

-ولك أنت ما عندك حياء، ألا تخجل.. الدنيا نص الليل.. ظننا هبط السقف أو وقعت مصيبة، قال كاز قال «ثلاث» قناني خلال يومين، خافوا الله أنا عندي كازية؟ رح عمي رح ما عاد عندنا كاز..

لم يتصور أبداً مثل هذا الجواب وبهذه اللهجة.. لم يتوقع أبداً أن يتوقف المطر فجأة وتصبح الأرض طيناً يابساً يعض على قدميه ويجمده كالعمود.. كان ينتعل الأرض وراح يغرق.. لو لم تكن هذه الأنثى موجودة.. لو لم يسمع صوتها.. لو لم تسمع هي صراخ والدها

الذي أقلق الليل.. كل السويداء سمعت ما قاله هذا العجوز البخيل.. كل الجبل.. وسمع من الداخل لغطاً «حرام» «اخرسي أنت« «طلاب» «قومي نامي» «فقراء» «فقراء.. من شهرين ما دفعوا أجرة الغرفة ذوق الكلب ولا تذوق بني آدم..»».

وانتزع قدميه من الوحل.. ومن شدة الوحل لم يستطع هذه المرة أن يرفع يديه إلى الأعلى كي تمر الدهشة.. ومن شدة الوحل جلس على حجر أمام باب غرفته.. لم ينتبه أنه كان حافياً.. لم ينتبه أنه كان مبللاً بالمطر كالخرقة.. كانت المزاريب تسيل من خصل شعره وكوعيه وأذياله ومع ذلك بدأ يشعر بالحرارة.. أجبروه على الدخول.. حملوه حملاً.. شلحوه ثيابه.. عصروها.. ألبسوه ثياباً ناشفة «بسيطة»، استند إلى الجدار.. عيناه لا تفارقان الفقاعات التي تنفخها قطرات الدلف في الصحن.. كانت تظهر وتختفي بسرعة أكبر: تك.. تك.. ترتك.. تك.. تك.. وكان مرسل أيضاً يبكي.. واتجهت عيونهم جميعاً إلى شهيقة:

لا تغلق الباب في وجهي

أيها الطيب

فإغلاق باب ليس بطوله

وضعت دفتر مرسل مفتوحاً فوق الكرسي ورحت أراقب صورة كبيرة ملونة فوق جدار غرفتي.. صورة لميخائيل غورباتشوف ممزقة من الأعلى إلى الأسفل.. أنا مزقتها.. شريط أبيض بعرض إصبعين يقسم الرأس إلى قسمين: عين في القسم الأيمن وعين في القسم الأيسر.. كان هو أيضاً ينظر إلي.. وكانت صلعته المدبوغة ببقعة قاتمة تشبه خريطة العالم – بدا كما لو أنه يقف خلف عمود.. لماذا علقت الصورة..؟ لماذا مزقتها؟ متى؟ أصلاً الجدار ليس لي.. الغرفة لي

ولكن الجدار لهم.. وحولت عيني عن الجدار.. وبقي هو طبعاً ينظر إلي من خلف الشق.. أعرف ذلك وأفيض بالحزن. ماذا يمكنك أن تفعل كي يفهم الآخرون بأنك.. حزين جداً.. حزين إلى الأبد..؟ من السهل طبعاً أن تعقد عقدة بين حاجبيك.. ألا ترد التحية.. أن تتجهم وتجعل عينيك مثل عيني الضفدعة أو الثور.. أن تتوقف عن الطعام من رؤية الناس.. من السهل جداً أن تسكر كثيراً.. تضرب زوجتك وأطفالك.. تمتنع عن الكلام ولا تبتسم إلا عندما تكون وحيداً.. ولكن ذلك لا يقنع أحداً.. مَن من الناس لا يمر بهذه الأطوار..؟ مَن مِن الناس لم يلبس هذا القناع؟ قناع الحزن - الذي يخاطبك عاتباً: انظر يا صاحبي أرجوك انظر كم أنا حزين.. انظر وأشفق على زميلك في الإنسانية.. زميلك في الجسد والعذاب والموت.. ولكن هل أنا حزين بالفعل؟ انتبه يا ربيع عمر.. هذه مسألة لا يجوز فيها الكذب.. أنا الآن مع نفسي.. لا أحد غريب.. هل أكذب على نفسي.. سؤال محير.. يبدو أنني أتصنع.. استمر في التمثيل.. ها قد ذهب الجميع وبقيت وحدك.. إذ كنت حزيناً حقاً أجب على السؤال التالي: لماذا..؟ وهل هذا سؤال.. هذه كلمة واحدة مجرد كلمة.. مثل الحب أو الشعر أو السعادة.. الحب لا يعرّف.. وكذلك الحزن.. إنه / كيف أشرح ذلك الحسي.. لا تتخبط.. قبل قليل كنت تعرف لماذا أنت حزين.. وكنت تشرح ذلك للآخرين بطلاقة وحذاقة.. أوه.. كم أنا قاس على نفسي.. أنا أحاصرها كما يحاصر الضمير رجلاً شريفاً.. وهل أنا شريف.. ولكن انتظر انتظر.. سأقول ما هو الحزن.. إنه نوعان.. نعم.. يجب أن أعترف بذلك.. حزن اجتماعي.. خارجي ينتابك عندما تكون مع الآخرين.. وحزن شخصي فردي ينبع من الداخل من القاع.. حزن يجعلك.. يجعلك تتساءل.. يجبرك على طرح الأسئلة: من أنا.. من نحن.. ما فائدة كل ذلك لماذا نعيش لماذا نتجادل.. لماذا نختلف نحقد

نقتل يسجن بعضنا بعضاً يعذب بعضنا الآخرين.. ماذا نريد بالتحديد.. حزن يجعلك تتذكر، «لا فائدة يا يسوع» يجعلك تمزق أوراقك ثيابك وتكره من تحب وما تحب.. يجعلك تقرف من الحياة.. من الشهيق والزفير من المشي والنوم والجنس والأكل والتفكير.. أنا أشم رائحة الصدأ يا ناس ليس صدأ الحديد وإنما الكون.. أشم رائحة الماء المالح.. ليس ماء البحر وإنما الينابيع.. أنا قضية بلا هدف..

رفع مرسل رأسه أخيراً.. نظر إليهم بعينين غريبتين.. لقد جعّد الذل وجهه ثم برقت عيناه ونهض.. ونهضت خلفه على الجدار الترابي المجدور - غيلان سود طويلة الأيدي والسيقان.. كبيرة الرؤوس..

أخذ يخلع ثيابه وهو يقول بصوت خافت عميق: «من يذهب معي..؟» نظروا إليه مشدوهين.. ثم سألوه وهم يعرفون الجواب: «إلى أين؟» «إلى الشبكي» قال مرسل والتمع ضوء باهر من خلال الشقوق.. وتبعه على الفور صوت الرعد المركز.. «هل جننت؟..» «خراء عليه وعلى كازه» - «المشكلة ليست في الكاز.. وإنما هنا.. هنا» وراح يدق على قفصه الصدري متهماً.. «ولكن كيف نذهب إلى الشبكي..؟» «مشياً على الأقدام..» «40 كم يا مرسل 40 كيلو..» «ولا تنس الثلج.. والوحوش..» حاولوا كثيراً إقناعه.. بالترغيب والتخويف بالترجي.. بتطويل البال حتى الصباح على الأقل.. ذكروه بالعقل والحكمة.. بدروس العربي والمذاكرات والسياب والأستاذ صياح.. ولكن الذي سالت المزاريب من خصلات شعره وكوعيه وذيوله لن يتراجع في لحظة تحد..».

«من أراد أن يرافقني فليلبس» استطاعوا إقناعه فقط أن ينتظر حتى الصباح.. ولكنه أصرّ على الساعة الرابعة صباحاً.. وعندها قرر أحمد أن يرافقه.. لن يتركه يذهب لوحده على أية حال..

وحتى الرابعة صباحاً - أشعلوا بعض الدفاتر والكتب القديمة..

طبخوا، أو بالأحرى، سلقوا طنجرة البرغل.. تعشوا وتدفأوا قليلاً.. أما الشمعة فقد نفقت، قبل ذلك الموعد بكثير..

الليل يخرج من النافذة طوال النهار

اسود أسود رمادي

أيتها الحجارة البركانية

يا فيء الجحيم

سأكحلك ببياض العين

عندما تذوب العتمة

لا بد من نافذة واضحة..

جبل.. يعني وعر ووديان وصخور.. وحوش ومنحدرات وجروف.. جبل يعني الثلج.. يعني كرة أرضية بيضاء تجلس بعيداً عالياً ولتجعل الضوء في مدينة السويداء - زاهياً.. لم يكن الثلج قد هطل بعد عندما صحت الدروب والمسالك الجبلية على أربعة أقدام بشرية شابة تدب صاعدة نحو الأعلى..

إلى أين يا مرسل..؟

«الشبكي» قرية صغيرة على الحافة الشرقية من جبل العرب، تطل مباشرة على بادية الشام كسراج الزيت الشاحب المعلّق على جدار خربة.. (40 كم) يا مرسل ومهما حاولت أن تختصر المسافة فلا بد من اللف والدوران حول التلال والجرود والوديان التي تنحدر.. «تعال نرتاح قليلاً..» «لا.. إياك أن تفكر بالراحة.. نرتاح عندما نصل..»..

ألم تبرد؟ ألم تتعب..؟ (40 كم) يعني سبع ساعات على الأقل.. هذا إذا لم يهطل الثلج وتنقطع كل الطرق..

و«الشبكي» قرية المغاور والأوكار..

ثلاثة أو أربعة بيوت فقط تستطيع أن تراها فوق الأرض.. أما بقية البيوت، وهي أصلاً قليلة - فتنزل إليها على بضع درجات حجرية تحت الأرض.. حيث يقابلك باب الحلس الحجري المنحوت لا أحد يعلم متى وبأي طريقة - والذي يكفي لإقفاله أن تضع خلفه حصوة صغيرة.. ولن يستطيع أي شيء - بعد ذلك - أن يحركه من مكانه..

قريبون جداً أهالي الشبكي من سكان الكهوف الأوائل.. أيام الشتاء وابتداء من نهايات تشرين - يجهزون أنفسهم للعيش تحت الثلج.. هم وماشيتهم حتى نهايات الشتاء في آذار، وربما في نيسان.. متران ثلاثة أربعة أمتار من الثلج ترتفع فوق القرى الجبلية، فتغمر البيوت وتسد الطرق، وتتكدس في المنخفضات والوديان.. وتبقى حتى أيام الصيف.. وأحياناً يصل الثلج - أيام الخير - حتى سبعة أمتار، فتختنق المداخن ومن الثلجة الأولى، يفتح الأهالي أنفاقاً تحت الثلج، فلا تنقطع الزيارات ولا تتوقف السهرات والاحتفالات.. ويستمر التواصل بينهم.. أما مع العالم الخارجي فلا تربطهم سوى بضع فتحات توصلهم إلى سطح الثلج حيث يخرجون ويتلقفون ما ترميه إليهم الحوامات من رسائل وطرود وبعض المعونات كالوقود والطحين والمعلبات.. هذا! إذا فكر بهم أحد، وكلّفت الحوامات نفسها واستطاعت أن تحدد مواقعهم، من خلال المداخن التي يتصاعد منها دخان الجلة والبعر والقصل..

إيه أيها الجبل

كم أنت جميل وشرس

كم أنت غني وأجرد

وحشي وبكر ومتكبر

مثلي..

-أين اللؤلؤ؟

يصطدم السؤال بزجاج النوافذ العريضة جداً في ثانوية شكيب أرسلان - الثانوية الوحيدة الجديدة في مدينة السويداء - ويرتد صوت الأستاذ صباح ليحلق من جديد في فضاء الغرفة العابق بالطبشور وغاز المازوت المحروق في المدفأة الكبيرة.. مدفأة المدرسة..

- «أصيح بالخلج يا خليج

يا واهب اللؤلؤ والمحار والردى

فيرجع الصدى كأنه النشيج

يا خليج

يا واهب المحار والردى..»

-أين اللؤلؤ..؟

ويسود الصمت في الصف الثاني عشر / أدبي شعبة أولى.. ويسود السؤال.. يجتاز البلّور والجدران والأسوار.. يعشش في الرؤوس.. في الجيوب.. في الدفاتر السيئة المليئة بالأسئلة.. ويخرج إلى الشوارع والبيوت..

-أين اللؤلؤ..؟ أين اللؤلؤ..؟ أين..

ثانوية شكيب أرسلان - التي تقع في الوهدة بين البريد شرقاً ومدرسة «الحكمة» الخاصة غرباً - كانت تطرح أسئلتها على المدينة.. على الجهل.. لا يوجد في المحافظة طالب بكلوريا واحد، لم يجلس

على مقاعدها ولم يتنفس من حوارها: بناية من ثلاث طبقات مرشوشة بالإسمنت الرمادي، تقع تحت الشارع، مسوّرة بجدار قاتم يذكرك بلون النحاس العتيق.. تسع عشرة درجة رخامية تقودك من رصيف الشارع - حيث البوابة الحديدية السوداء الضخمة - إلى باب بهو الثانوية.. ثانوية طويلة طويلة وواطئة كسفينة مربوطة في مرفأ جبلي..

-أين اللؤلؤ..؟

-كم مرة سأل الأستاذ صياح هذا السؤال؟ الأستاذ صياح نفسه - الذي وضع بحث السياب في كتاب التراجم والنقد - والذي يدرّس اللغة العربية منذ خروج الفرنسيين.. كم مرة سأل هذا السؤال..؟ كان يستمتع خاصة بقراءة هذه القصيدة للسياب ثم يتوقف فجأة ويطرح السؤال: أين اللؤلؤ..؟

-في الحجارة السوداء.. قال مرسل

ومباشرة لفت انتباه الأستاذ..

قرأ بحث السياب عدة مرات، قرأ دواوينه.. تتبع أخباره.. حفظ قصائده وهو بعد في الصف العاشر.. لم يكتف بما كان مقرراً للصف العاشر «الشعر الجاهلي» وإنما استحوذ عليه أيضاً السياب شعراء الأرض المحتلة أحمد باكثير، عبد المعطي حجازي، مايا كوفسكي، ناظم حكمت، البياتي، نيرودا.. كان يقرأ كثيراً.. يستعير الكتب من المركز الثقافي.. من أصدقائه.. من الأساتذة.. يلتهم كل شيء كما لو أنه كان يعلم بأنه سيموت قريباً جداً..

إذا توفرت الشمعة في قرية الشبكي - فهذا رائع لأن ضوء السراج كئيب ووسخ - لم يكن مرسل يحبه - أما ضوء الشمعة فنظيف وحنون..

وعندما انتقل - بعد حصوله على الابتدائية - إلى «المشنف» وكانت ما تزال وقتها مجرد قرية ولكن فيها مدرسة إعدادية. عندما انتقل إلى هناك واستأجر - لأول مرة في حياته - بيتاً، استطاع أن يستخدم القنديل ذا البلورة الشفافة والمفتاح النحاسي الصغير المدوّر الذي يمكنك بواسطته التحكم بكمية الضوء ولكن الزيت - الكيروسين - ذلك السائل الشبيه بالماء النقي - الكاز ذو الرائحة الحادة والسعر الخرافي - كان عدوه الأساسي. «الطبقي» كما كان يحب مرسل أن يسميه.. فنادراً ما كان يتوفر.. وإذا ما توفر فنادراً ما تجد سعره أو ما تقايضه به.. البيضات القليلات، التي كانت توفرها أم مرسل وتبعثها لولدها الوحيد - لم تكن تكفي حتى للغذاء.. كان يقايضها كلها بزيت الكاز..

أنا ذاهب إلى جهنم

فلا تتبعوني

ولا تنتظروا أن أعود هذا المساء

بعود ثقاب

لفت انتباه الأستاذ من الأيام الأولى..

الأستاذ الذي لا يندهش بسهولة.. ولكن مرسل كان مدهشاً بالفعل.. يدهشك بأسئلته، بذكائه، بصمته، بفقره وشحوبه، بجديته وانفعالاته وشخصيته.. وكان هو أول من تساءل عن شكيب أرسلان.. الذي تحمل الثانوية، اسمه..

بعض الطلاب اعتقده صاحب الثانوية وبعضهم ظن بأنه اسم الأمير، وبعضهم لم يفكر أصلاً بهذا الموضوع، فالطالب قلما يخطر على باله التدقيق في آرمة المدرسة وخاصة إذا كانت معلقة على ثانوية جميلة هائلة مثل ثانوية شكيب أرسلان. انتظر مرسل حتى

سمح أستاذ التاريخ بطرح الأسئلة في نهاية الدرس - معتقداً - ولا يعرف لماذا - أن هذا الاسم يجب أن يكون له علاقة ما بالتاريخ.. ولكن أستاذ التاريخ اعترض على السؤال وكرر من له سؤال حول درسنا: «حملة نابليون على روسيا»..

وفي درس اللغة العربية دخل الأستاذ صياح على غير عادته.. توجه مباشرة إلى السبورة.. أمسك بالمساحة ومسح ما كتب على زاوية السبورة.. نفض يديه مبتسماً وطلب من مرسل بالذات أن يخرج إلى السبورة فخرج..

-أمسك الحوارة واكتب بخط عريض عنوان درسنا لهذا اليوم:

-شكيب أرسلان شاعراً وسياسياً ومناضلاً..

دهش الطلاب لهذا التحول، فالدرس اليوم يفترض أن يكون قواعد: «إعراب أشباه الجمل» ولكن الأستاذ كان قد سمع بسؤال مرسل وسرّ كثيراً أن يتواجد في هذه الثانوية من يسأل هذا السؤال..

وفي نفس اليوم - أثناء الفرصة - ناداه الأستاذ صياح..

كانت شمس الشتاء تبقع باحة المدرسة وجدرانها.. وكان الطلاب يتجمعون في هذه البقع..

-سمعت بأنك تكتب الشعر..

خجل مرسل.. احمر وجهه الأسمر.. وأطرق

-اقرأ لي مقطعاً..

-..

-طيب.. أكتبها وأعطنيها.. غداً سأنتظرك في غرفة المدرسين..

وما يزال دفتر مرسل الصغير موجوداً حتى الآن لدي

-رعونة-

أنا ألتهم الرماد

إذا كنت على جمر

أجده أطيب من أكل الهواء..

وإن كنت منتظراً..

أقضم الحجر ذاته

فليس لدي وقت

كي ينضج

-الزمن-

يمر أمامنا

قافلة من الجبال

ولكن هل نراه..؟

يلطم وجوهنا بحوافره

يأكلنا بقبوره

ونحن نظن بأنه

مجرد ذبابة

أخ يا مرسل يا مرسل.. خرجت من المعتقل بعد عشر سنوات وأول شيء فعلته هو أنني طلقت زوجتي.. طلقتها لأنها.. لأنني.. لأنني ماذا؟ لماذا فعلت ذلك..؟ تتوق إلى الحرية.. تتشوق لرؤية روث

الحيوانات.. دودة الربيع.. تتشوق لدخول الفرن بعد الساعة الثالثة صباحاً.. لزجاجة بيرة باردة على الرصيف لقطع شارع مكتظ بالسيارات والناس.. «مستعد أن أقطع يدي ثمناً للحرية».

-كما قال أحدهم / يا ليتني كلب يعوي في الصحراء، كما قال آخر..

وتخرج إلى الحرية بعد عقد عجوزاً.. غريباً.. متهدل الجسد.. متفحم الروح.. تبحث عما كنت تتوق إليه.. كل شيء تغيّر وتبدل ليس فيك فقط وإنما في الآخرين في الناس في أقرب الناس إليك جيل كامل لا تعرفه شب.. ابنة أخيك الطفلة تزوجت وأصبحت أماً.. أمك شاخت من الحزن عليك وأصبح منظرها يثير فيك الرعب والندم.. زوجتك «العروس» شابت ولم تعد تلك.. ترهل جسدها وذبلت من الصبر والقهر وقسوة الحياة.. ولداك لا يعرفانك ولا تعرفهما - كما كنت تظن / أشجار السرو التي كانت زالت.. أشجار الكينا الجديدة / أطفال الجيران الجدد.. الشوارع العمارات الساحات.. بيت الطفولة الحارة الأقارب العلاقات.. وأنت / كل شيء غريب.. وكل ما تذكره - وتعتقد بأنك ستلتقي به - تجده قد أخلى المكان في ذاكرتك فأصبحت أخيراً بلا ذاكرة.. بذاكرة نظرية.. إنها عزلة العجائز رغم أنك لم تتجاوز العقد الخامس إلا بسنة واحدة.. هذه هي الحرية التي أعادوها إليك.. لا بأس.. نكافح.. نحبو من جديد.. على أربعة أقدام نحبو.. نتعلم المشي.. والكلام مع الناس.. نتعرف على ما يحيط بنا من جديد.. ومن جديد نتلقى الصدمات.. ثرثرة الناس حول سلوك زوجتك التي تركتها شابة.. وتنهشك الغيرة.. يتقاذفك الصراع.. عشر سنوات وهي تكافح وتقدم لك.. ربت طفليك ولم تنقطع عن زياراتك كل شهر.. تحرم نفسها وتشتري لك حاجاتك.. باعت خاتم زواجها.. قطعت عمرها بين البيت وبين الطفلين وبين العمل ووسائل النقل..

وبيتك.. اشتغلت ساعات إضافية.. بذلت ما يعجز الرجال عن بذله..
تحملت ثرثرة المجتمع وحملت على كتفها الأكياس والسلاسل
والصناديق.. وحملتك.. من باص إلى باص.. ومن باب سجن إلى
آخر.. وأنت أنت من كان يقول: أريد فقط أن أخرج كي أرد الجميل
إلى تلك المرأة.. وها آنذا أفعل يا مرسل.. أطلقها.. قلت لها: أنت
طالق طالق طالق.. أنا ربيع عمر قلت لها ذلك وهي ذهبت.. أخذت
الطفلين معها.. وذهبوا.. كم كنت أخاف - وأنا بلا حرية - من هذا
السؤال «هل يعقل أن تخون..؟» أطرحه بيني وبين نفسي.. سراً
أطرحه أصل أحياناً إلى حد اليقين «لا بد من ذلك وأكرهها.. أراها
خائنة.. عا..هرة.. أدرسها خلال الزيارة.. أبحث عن دليل يسعفني كي
أدينها.. أحاول أن أغور في أعماقها وأجمع القرائن والأوهام.. أراها
جميلة ومشتهاة فيركبني الشيطان الشرقي «لا بد من ذلك»وأستعين
بنظرتها.. لماذا لا تنظر في عيني مباشرة؟ هي حرة طليقة وأنا خلف
القضبان أحلل.. أربط.. أقلّب الأمور وأصل إلى قرار لئيم: «امرأة..
إذن عاهرة..» وأحياناً أستسخف نفسي وأندم.. أشعر بأنني ظالم
وجاحد ومجنون.. كيف أفكر هكذا.. لماذا؟ بأي حق.. وأتذكر حبنا..
أتذكرها: الإنسانة الرقيقة الجميلة الطيبة.. أتذكر أخلاقها الرفيعة
وأعترف: «إنها أحسن مني» وأتساءل: «هل يوجد لدى هذه المرأة وقت
كي تخون..؟ وما هي الخيانة أصلاً..؟ كيف تكون..؟ لولا هذه المرأة
لكنت الآن دودة..».

ذات يوم من أيام السجن القاسية كنت أتمشى مع أحد الرفاق
في ساحة التنفس وكنا نتحدث «ولأول مرة وآخر مرة» في هذا
الموضوع بالذات.. إنه من المحرمات.. يمكنك أن تفكر فيه كل يوم كل
ساعة إذا اردت ولكن لا يجوز أن تبوح به.. بدأنا الحديث عن زوجاتنا
من صبرهن وكدحهن وما يعانين من مشقات وصعوبات اقتصادية

واجتماعية.. مع الأطفال.. في العمل.. في المجتمع.. وأنهينا الحديث بهذا الشك المبطن الناخر بهذا التساؤل المريب.. ولست أدري لماذا أغاظني الحديث فقلت أخيراً كي أغضب زميلي:

«أما أنا فأتمنى أن يكون لزوجتي عشيق - رجل حقيقي وليكن من يكون.. أليس هذا أفضل..» تركني.. ومنذ ذلك التاريخ لم يعد يمشي معي.. أنا كنت أقول ذلك عندما كنت بلا حرية.. نعم من حقها.. فأنا أيضاً خنتها ولم أبح لها بذلك رغم أنها سألتني.. خنتها عشرات المرات.. مئات.. جربت نساء مختلفات.. ولكن المجتمع يسمح لي ولا يسمح لها.. فماذا أفعل؟ ما هو ذنبي..؟ ومن الذي أخبرك بأنها خانتك..؟ أليست هي نفسها؟ هل كنت تعلم شيئاً قبل ذلك..؟ هل كنت آخر من يعرف..؟ ومن كان يعرف غيرها وغير إبراهيم.. ومن الذي كان يثرثر.. لا أحد.. نعم لا أحد.. لقد اعترفت لك بذلك لأنها لا تستطيع أن تخفي شيئاً.. واعتقدتك رجلاً متحضراً.. ألم تشجعها أنت نفسك منذ البداية؟ نسيت محاضراتك عن المرأة والجنس والرجل العصري..؟ أنا كنت أقول ذلك عندما كنت بلا حرية.. وعندما أصبحت حراً طلقتها.. نعم لم يكن أحد يعلم غيرهما هي وهو.. ومن الليلة الأولى قالت لي الحقيقة.. آه يا مرسل ما أصعب الحقيقة.. إنها أصعب من الكفاح من أجلها.. وكما كنت أحلم - اشتريت باقة ضخمة من الأزهار: ورود وقرنفلات وزنابق.. اغتسلت، ولأول مرة منذ عشر سنوات في حمام شقتنا.. فرشت السرير بنفسي.. تناولت باقة الأزهار - وفرطتها على حواف السرير: زنبقة ثم قرنفلة ثم وردة ثم زنبقة.. كانت تراقبني وكان واضحاً أن هذا المستطيل الأبيض المسيج بالأزهار لم يبعث البهجة في نفسها وإنما القلق.. منذ البداية كانت تراقبني بحذر واستغراب وتبكي.. وعندما اقتربت منها.. قبلتها.. وحاولت - كما تعودنا - أن أفك أزرار قميصها.. فأمسكت يدي

وقالت: انتظر.. ثم قادتني إلى السرير كالطفل ومددت أصابعي مرة أخرى.. ابتعدت.. ثم أطفأت النور.. لم أكن أرغب بإطفاء النور.. ليس بسبب الأزهار فقط – وإنما كنت أريد أن أراها.. عارية.. قلت: لماذا أطفأت النور – لم ترد – صعدت إلى السرير.. تلمستها.. كانت نصف عارية.. وكانت باردة كالبلاط.. وكانت لا تريدني.. ظننت بأنها تخجل من جسدها الذي شاخ ربما وترهل.. وربما تريد أن يكون ذلك بالتدريج.. حضنتها.. لم تتجاوب: مالك؟ قالت أخيراً: انتظر.. وغادرت السرير.. انتبهت إلى نفسي.. تحسست مشاعري.. أنا أيضاً لا أشعر بأية رغبة «حقيقية» سوى رغبة التجربة.. هل أستطيع..؟ أما زلت رجلاً..؟ هل أنا قادر على إسعادها؟ كنت أشك في ذلك؟؟ وكنت بحاجة لمساعدتها.. عادت وهي تلبس فوق قميص النوم مشلحاً.. وفكرت.. ربما كنت أنا السبب.. فأنا.. عجوز.. جلست في السرير وقالت بصوت مبحوح متهدج: أريد أن أتحدث إليك.. قلت: على العتمة؟ قالت: نعم.. نتحدث.. لم لا.. تناولت سيجارة وقدمت لها واحدة.. أشعلت سيجارتي واسترقت النظر إلى وجهها.. كانت تحدق بي.. وفهمت عندها أن شيئاً ما خطيراً قد حدث..

سردت لي قصتها مع إبراهيم بشكل مفصل.. ولكنها لم تذكر اسمه.. وقالت إنها لا تستطيع أن تخفي ذلك عني وإن أحداً لا يعرف بالأمر.. وقالت إنها كانت تتعذب وأرادت أن تخبرني في الزيارات ولكن الظروف لم تكن تسمح.. وكنت أنا عصرياً معها.. اعتبرت أن صراحتها تكفي وأن ذلك شيء طبيعي.. وكان لي طلب واحد فقط: أن أعرف من هو.. رفضت أن تبوح وقالت إن ذلك غير مهم وإنه أمر عابر ولن يتكرر – خاصة وأنني قد خرجت من السجن.. ولكنني اعتبرته شرطاً.. إذا أرادت أن أصفح عنها فيجب عليها أن تذكر لي اسمه.. وانتبهت إلى كلمة «أصفح» وإلى «فيجب عليها» ثم لا أدري

لماذا بدأت أسأل عن التفاصيل: متى حصل ذلك؟ كيف كان يحصل؟ كم مرة.. أين.. ومن أيضاً..؟ يا للسخافة.. زوجتي الآن في الأربعين من عمرها.. وما زلت أذكر التلق المخيف الذي التمع في عينيها عندما أشعلت سيجارتي واسترقت النظر إلى وجهها.. عينان وحشيتان.. كانت تتحدث بصوت خانع.. وكانت تتوقع أن أحطم الدنيا على رأسها أو أقتلها.. ولكنني كنت عصرياً بالفعل.. اعتبرت ذلك شيئاً طبيعياً.. وهذا ما زاد من خوفها.. فكانت تسأل: حقاً.. فعلاً.. ثم قبلتني بحذر.. داعبت صدري وبطني و.. ولكن دون فائدة.. تركتني وهي تقول: سأشعل الضوء ولكنني أمسكت بها بعنف دون أن أقول شيئاً فجمدت لفترة وسألت: ما بك؟ قلت: لا شيء.. لا شيء.. ولم أنم تلك الليلة.. وهي كذلك.. لم تنم.. وأدركتُ وأدركتْ أن حياتنا أصبحت مستحيلة.. وها أنذا أقف الآن عارياً تماماً.. لا أخجل حتى من عورتي.. ولماذا أخجل. لقد أصبحت بلا عورة.. طلقتها البارحة.. أنا ربيع عمر طلقتها قلت لها: أنت طالق طالق طالق.. أنا قلت ذلك وهي أخذت الطفلين وذهبوا.. وبقيت أنا.. وصورة غورباتشوف ودفتر مرسل - ومسدس سوفيتي عيار 7 مم.. كل المسالك مسدودة أيها العقرب لم يبقى أمامك إلا مسلك واحد.. هو مسلكك إليك.. افتح ثقباً في الجسد دعه يخرج.. دعه يخرج.. انضح القلب واملؤه بالتراب.. فهل أنا حزين..؟

وصلا إلى القرية بعد الظهر.. 40 كم من الصخور والوحول والبرد والمطر.. أحدث وصولهما مفاجأة وضجيجاً.. كانت القرية خالية تماماً، مختبئة تحت الأرض تبدو للغريب قفراء لا أثر فيها للإنس لولا الدخان المتصاعد من هنا وهناك.. الوحيد الذي رآهما هو أبو فندي؟ كان يسوق حمارته المحمّلة بالحطب.. رأسه يكاد يدخل بين كتفيه ويداه خلف ظهره.. والحمارة خلفهما بدت ما لو أنها تجر جراً..

«العوافي عمي أبو فندي» «الله يعافيك» رد عليهما دون أن يفهم من أين انبثقا؟ من هما؟ من يقصدان؟ ولماذا في مثل هذا الطقس؟ وعندما تعرف عليهما أخيراً، ظل لفترة طيلة لا يصدق عينيه.. وتتالت الأسئلة ماذا حدث..؟ كيف فندي «هل حصل مكروه؟ أكيد؟ لماذا أتيتما إذاً؟ كيف..؟ ونفس الأسئلة ترددت في كل بيت.. لم يصدق أحد أنهما سارا مشياً على الأقدام من السويداء إلى الشبكي.. تعجز الفرس عن ذلك، وتقاطر أهالي القرية على دار «أبو مرسل» و«أبو أحمد».. وكان جوابهما واحداً «انقطعنا من المونة والمصاري» «ما باليد حيلة - يشهد الله - جهزنا كل شيء: السمنات والبرغلات والعدسات والدبسات.. ولكن أولاد الحرام - أصحاب السيارات يرفضون الوصول إلى الشبكي يخافون من الغول الأبيض».

وانحشرت أخت مرسل الصغيرة بين فخذيه.. صعدت على ركبته وطوقت عنقه بذراعها عدة مرات وهمست: «أنا صرت بالمدرسة» «أنا صرت بالصف الأول».. وكان مرسل قد وعدها أن يشتري لها أسوارة خرز وحقيبة مدرسة عندما تصبح في الصف الأول ولكن مرسل لم يف بوعده..

وما أن حل الظلام حتى كان ديك أم مرسل مطبوخاً وجاهزاً للعشاء وكان الطقس في الخارج - فوق - ينذر بالعاصفة الثلجية..

نهض في اليوم التالي باكراً جداً.. ومن الصمت الخاص الذي خيّم على المكان والذي لا يعرف معناه إلا أهل الشبكي - استطاع مرسل أن يكتشف بأن ما كان يخشاه قد وقع فالغول الأبيض يسمل الآن كل شيء.. ولا أحد يعلم بعد ما هو ارتفاعه ومساحته.. وكانت علامات الرضى والارتياح بادية على وجه أم مرسل فمرسل سيبقى عندها لفترة طويلة.. ولكن الذعر الذي انتابه قلب كل العلامات «يجب أن أكون اليوم في السويداء» «يا مرسل يا حبيبي يا عيني» «لا أقدر لا تحاولوا.. المونة

جاهزة؟» ووصل الذعر إلى ذروته عندما علموا أن أحمد سوف يبقى.. بكت أمه وأخواته الثلاثة.. حتى الصغيرة راحت تصرخ دون أن تدرك لماذا.. سماكة الثلج مخيفة.. سنة خير.. أناخت أشجار السرو الثلاثة.. هذا هنا في القرية فكيف ستكون هناك في الممرات الجبلية والوهاد.. «ليكن لا يهمني.. جهزوا لي جاط النحاس..» حاولوا كثيراً.. عجزوا.. طلبوا من أحمد ألا يتركه ولكن أهل أحمد رفضوا.. مجنون هذا المرسل.. وحاولت أمه للمرة الأخيرة.. تشبث به بكت.. وضع الزوادة في الجاط النحاسي.. ربطه بحبل.. ربط الحبل بحزامه.. وغادر.. رافقوه مسافة بعيدة - كل أهل القرية تقريباً - حتى وصل إلى كتف الوادي «الجمل» كان يحمل الجاط على ظهره.. وضعه جلس فيه مع الأغراض وانزلق ببطء.. ثم أخذ يتسارع.. بتسارع.. يبتعد.. يبتعد.. يبتعد.. حتى أصبح نقطة سوداء.. وتلاشى..

أمسكت المسدس بكامل قبضتي.. سأطلق النار بطريقتي الخاصة.. فكي أستطيع أن أقضي علي، لا بد من توجيه الفوهة إلى هنا.. أو.. إلى هنا.. أفضل..

قبلتني فوهة المسدس في صدغي الأيمن.. كانت باردة.. ولكن ذلك يحتاج إلى أعصاب كأعصاب ستالين.. لا.. أولئك الذين يطلقون الرصاص على رؤوسهم كثيراً ما يخطئون.. ثم يعدلون عن الفكرة كلها.. أما إطلاق النار على القلب فيحتاج إلى قليل من الأعصاب وكثير من العاطفة.. ولكن ذلك يترك بركة من الدماء..

آه يا مرسل.. كيف كبرت الآن وأصبحت هما..

النوارس تبكي على الشواطئ البعيدة

النوارس تبكي على ضفاف الجليد

والجنرالات الذين انتحروا بإطلاق النار عليهم

يفتخرون الآن بإطلاق النار على أنفسهم

النوارس تبكي وتتنفس

تبكي وترمق البحر

إنها تنقط فوق رؤوسنا

التي يعلوها الزبد..

وها أنذا وحدي، أرفع قبضتي وأطرق على الطاولة بعنف وأنا أسأل: هل يعقل أن كل ما حلمنا به كان عبثاً بعبث..؟ هل تغيّر لون الشمس حقاً. أصبحت شعاراتنا ملوثة..؟ غير ممكن.. غير ممكن.. لا أصدق.. لا أستطيع أن أصدق.. لقد كنت مطمئناً عليك.. كنت واثقاً أنك في أياد أمينة.. ولكنني الآن أصبحت أخاف.. أخاف.. أخاف.. كثيراً..

لا تحزن، إذا انتصروا

هذا لا يعني إنك هزمت

فهم يحملون الغربال

ونحن الشمس..

في احتفال رسمي أطلق الأستاذ صياح على مرسل لقب شهيد واقترح تعليق صورته في بهو المدرسة، بعد أسبوع من البحث وجدوه قريباً من السويداء.. رأوا الجاط النحاسي أولاً.. كان يلمع تحت الشمس أكلت الوحوش كل ما كان يحويه ما عدا تنكة من زيت الكاز..

وعلى بعد 1000 م تقريباً وجدوه هو: جاثياً يكتب شيئاً ما على الثلج لماذا لم تقترب منه الوحوش؟.. - القلم بين أصابعه وعلى ورقة ما كتب ثلاثة أحرف من اسمه: مرس.. ثم.. ينزلق القلم ببطء شديد من الورقة وينغرز في الثلج..

بقعة سوداء كان.. محاطاً بالبياض الشاسع.

ولكن لا أدري لماذا كلما تذكرته أراه هو مرسل الأبيض محاطاً بالسواد الشاسع منذ ربع قرن.

و..

دوّى طلق ناري..

وسمعت باباً ينفتح.. وصرخة أنثى..

ومع الطلقة الثانية انتبهت إلى نفسي.. وصحوت.. كانت زوجتي تقف كالمجنونة بعد النوم.. وكان المسدس بين يدي الاثنتين - مصوباً باتجاه المرآة.. باتجاه قلبي في المرآة.. وكنت أهم بإطلاق الرصاصة الثالثة.. ولكن الصرخة جمّدتني..

قذفت المسدس على الأرض ووضعت رأسي بين راحتي..

لقد كنت حياً.. ولامست أصابعها شعري.. ولامس شعري أصابعها ثم ضمتني إلى بطنها.. لم أنتبه - لا أنا ولا هي - إلى المرآة:

كانت محطمة برصاصتين.. وكانت الدماء تسيل من ثقبين - فوق الأرض..

وقبلت رأسي. فنظرت إليها وابتسمت.. ولكنها تركتني وركضت لتحضر كمية هائلة من القطن والشاش الأبيض.. وكنت لا أستطيع أن أراها خلف كومة القطن والشاش الأبيض.. وهي تضمد المرآة.. وأطل الطفلان من باب غرفة النوم، وراحا ينظران إلي بدهشة..

صيدنايا

أيلول 1991

الفهرس

الإهداء 5

المقدمة 7

البدوق 9

المشاعل 19

الغول والزغلول 33

طوق الرمل – تحت الشمس 51

المشنقة 57

الإطار الأسود 65

مذكرات برميل 71

القبلة 81

أصابع الموز 87

طوق الثلج 101

تكتوي "اصابع الموز" بنيران القسوة، وآلام السخرية، السوداء المرّة، وهي تسرد أمامنا قصصاً درامية مليئة بالشجن، تنوس بين الخيال الفانتازي المجنّح، وبين مرارة التجربة العميقة التي فرضت نفسها على الكاتب غسان جباعي في عزلته الطويلة، الباردة .

ومن عصارة ذاك الألم المصفّى، والغضب الحانق، والحنان الفيّاض، والحب الدافئ، والعواطف.. الجياشة المكبوتة .. من قلب ذاك الصمت المريب، المنذر بالموت البطيء المروّع تبرعمت، ونمت، وعرّشت خيوط قصصه على شكل استعارات، ومجازات، ودلالات مكتنزة داخل النص، تبطّن، وتشي، بأكثر مما تفصح .. وهي بذلك تترك مساحةً أمام القارئ للتأمّل، والمشاركة .. والتواصل مع هذا العالم القصصي الذي يشعل بنوافذ عتمته شهوتنا للحياة!



دار كنعان
للدراسات والنشر
والخدمات الإعلامية